مجلة جامعة الملك خالد
للدراسات التاريخية والحضارية

مجلة علمية محكمة فصلية تعنى بالدراسات التاريخية والحضارية

المجلد الرابع

العدد الرابع (أكتوبر 2023م)

جامعة الملك خالد

King Khalid University

P-ISSN 1658-872X
E-ISSN 1658-8568
رقم الإيداع: 1442/3597

مجلة جامعة الملك خالد

للدراسات التاريخية والحضارية

مجلة علمية محكمة فصلية تعنى بالدراسات التاريخية والحضارية

رئيس التحرير: أ.د. أحمد بن يحيى آل فائع

مدير التحرير: أ.د. عبد العزيز محمد رمضان

هيئة التحرير: أ.د. مصطفى محمد قنديل زايد

أ.د. علي بن حسين صميلي

د. حسن بن يحيى الشوكاني

د. علي بن عوض آل قطب عسيري

الهيئة الاستشارية: معالي أ.د. إسماعيل بن محمد البشري (جامعة الجوف سابقًا)

معالي أ.د. سعيد بن عمر آل عمر (جامعة الحدود الشمالية سابقًا)

أ.د. عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش (جامعة أم القرى)

أ.د. عبد العزيز بن صالح الهلابي (جامعة الملك سعود)

أ.د. سليمان بن عبد الرحمن الذييب (جامعة الملك سعود)

أ.د. مسفر بن سعد الخثعمي (جامعة بيشة)

أ.د. عبد العزيز بن راشد السنيدي (جامعة القصيم)

أ.د. غيثان بن علي جريس (جامعة الملك خالد)

أ.د. محمد بن منصور حاوي (جامعة الملك خالد)

المراسلات:

- تُوجه المراسلات لرئيس تحرير المجلة على العنوان الآتي: المملكة العربية السعودية، أبها، جامعة الملك خالد، كرسي الملك خالد للبحث العلمي. فاكس: 072289241، هاتف 072289241، بريد إلكتروني jhc@kku.edu.sa

شروط النشر:

- تُرسل البحوث عبر الموقع الإلكتروني للمجلة https://itcsvc.kku.edu.sa/KKU_ScientificJournals/، وفق الشروط الآتية: -
- عدم تعارض المادة العلمية مع أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمة الدولة.
- تقبل المجلة البحوث والدراسات في مختلف التخصصات التاريخية والحضارية.
- يراعى في البحث الأصالة والجدة والجودة في الفكرة والأسلوب والمنهج والتوثيق العلمي والخلو من الأخطاء العلمية واللغوية.
- أن تتضمن ورقة الغلاف باللغتين العربية والإنجليزية: عنوان البحث، واسم الباحث، ولقبه العلمي، وتخصصه، وبريده الإلكتروني، فضلاً عن ملخص البحث (بما لا يزيد عن 200 كلمة) وكلماته المفتاحية باللغتين العربية والإنجليزية.
- يُرسل البحث باللغة العربية أو باللغة الإنجليزية عبر موقع المجلة في نسخة word (A4)، على ألا تتضمن أية بيانات دالة على هُوية الباحث، وألا تزيد صفحات البحث عن (50) ورقة تشمل الجداول والمراجع والملاحق.
- كتابة البحث باستخدام نظام متوافق مع أنظمة الحاسب الآلي، على أن يكون نوع الخط عربيًا تقليديًا Traditional Arabic والبنط (18) للعناوين الرئيسة للبحث، و(16) لمتن البحث، و(14) للهوامش.
- أن تكون طريقة التوثيق في نهاية البحث وفق منهج البحث العلمي المتبع، على أن يتم التعريف بالمصدر كاملاً عند ذكره أول مرة، وغير مطلوب إلحاق قائمة المصادر والمراجع في نهاية البحث.
- يسمح بالتوثيق من المواقع الإلكترونية وفق الشروط والطرائق المنظمة لذلك.
- عند قبول البحث للنشر في المجلة يُزود الباحث بخطاب رسمي مختوم بالموافقة على النشر.
- تُنشر نسخة إلكترونية من أعداد المجلة على موقعها الإلكتروني.
- يتم ترتيب محتويات المجلة وفقًا لاعتبارات فنية.
- كل ما يُنشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه، ولا يُعد تمثيلاً لوجهة نظر المجلة.

محتويات العدد

المحتويات..... ز

تصدير العدد ..... ط

البحوث

- **عوض بن عبد الله بن سعد بن ناحي**: التراث اليوناني في الأقاليم المفتوحة مصدرًا للتاريخ الإسلامي المبكر: دراسة تقييمية للمصادر التي دُونت حتى نهاية العصر الأموي (13- 123هـ/ 634-749م) **1-31**
- **ابتسام عبد الله الصافي**: التحدي السعودي للعثمانيين في الحجاز في القرن التاسع عشر الميلادي. الأسباب والنتائج **33-64**
- **خليفة بن عبد الرحمن المسعود**: موقف الملك سعود بن عبد العزيز تجاه الادعاءات الإيرانية في البحرين (1373- 1378هـ/ 1953-1958م) **66-95**

تصدير العدد

يطيب لهيئة تحرير "مجلة جامعة الملك خالد للدراسات التاريخية والحضارية" أن تقدم للقارئ الكريم عددها الثاني عشر (العدد الرابع من المجلد الرابع/ أكتوبر 2023م) الذي يحوي بين جنباته بحوثًا تتسم بالعمق والجِدّة والأصالة، ولمجموعة متميزة من الباحثين المتخصصين في مختلف حقب التاريخ والمنتمين إلى جامعات المملكة العربية السعودية. ويُجسد هذا العدد عمل هيئة التحرير المستمر والدؤوب لتحقيق الرؤية والرسالة اللتين تطمح إلى تحقيقهما المجلة بهدف الارتقاء بها إلى مصاف المجلات العلمية المتميزة والمعتمدة في أفضل التصنيفات.

والتزامًا من هيئة التحرير للباحث والقارئ الكريم بمبدأ العمل المستمر في إصدار الأعداد؛ فإن العملَ جارٍ على تحكيم بحوث العدد الأول من المجلد الخامس (يناير 2024م) ومراجعتها تمهيدًا للنشر في الموعد المحدد.

وأخيرًا؛ تسعدُ هيئة تحرير المجلة بتلقي الملحوظات والمقترحات التي سوف تُسهم في تحسين إخراج المجلة ومحتواها، وتصل بها إلى ما ترتجيه من مكانة علمية عالمية مرموقة، وذلك على بريدها الإلكتروني: jhc@kku.edu.sa

رئيس التحرير

أ. د. أحمد بن يحيى آل فائع

أبحاث العدد

التحدي السعودي للعثمانيين في الحجاز في القرن التاسع عشر الميلادي الأسباب والنتائج

د. ابتسام عبد الله الصافي•
جامعة الملك سعود – السعودية

المستخلص:

مر على دخول السعوديين الحجاز، وبسط نفوذهم على بلاد الحرمين الشريفيين أكثر من قرنين من الزمان، فيما اعتُبر حينها أكبر تحدٍّ واجه العثمانيين منذ تأسيس إمبراطوريتهم. وذلك نظرا لتبني السعوديين فكرًا سياسيًا جديدًا يقوم على إنهاء تبعية الحجاز والمنطقة للحكم العثماني، والمراهنة على قدرة سكان المنطقة على إنشاء وحدة سياسية مستقلة، بما يستلزمه ذلك من تجريد السلطان العثماني من لقب خادم الحرمين الشريفين، وقطع الخطبة والدعاء له، وطرد كل موظفيهم، وإقفال أبواب الحجاز في وجه قوافل حجيجهم التي لم تتقيد بالتعاليم السعودية، شرطًا أساسيًا للسماح بأداء فريضة الحج للسعوديين في الحجاز. وخلصت الدراسة إلى أن إصرار السعوديين على فرض هويتهم الكاملة على الحجاز، لم يترك للحكومة العثمانية مجالًا للمساومة والقبول بالأمر الواقع؛ فجيشت آلتها الإعلامية ضد السعوديين، وطبقت حصارًا اقتصاديًا خانقًا على الحجاز، واستعانت بألدِّ منافسيها –وهو والي مصر– لاستعادة الحجاز، وهم يعلمون أنه لا يقل خطورة عنهم، ثم كلفته باستعادة هيبتهم المفقودة عبر القضاء على دولتهم نهائيا"؛ دون الاكتراث بما ستؤول إليه الأوضاع السياسية والأمنية في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية – السعوديون – الشريف غالب – محمد بن عبد الوهاب – الدرعية.

The Saudi Challenge to the Ottomans in the Hijaz in the Nineteenth Century AD: The Causes and Consequences

Ibtsam Abdullah Alsafi
King Saud University – Saudi Arabia
Ialsafi@ksu.edu.sa

Abstract

More than two centuries have passed since the Saudis entered the Hijaz and extended their influence over the land of the Two Holy Mosques, in what was then considered the greatest challenge facing the Ottomans since the founding of their empire. Due to the Saudis adopting a new political ideology based on ending the dependence of the Hijaz and the region on Ottoman rule. And betting on the ability of the region's residents to create an independent political unit. This entailed stripping the Ottoman Sultan of the title of Custodian of the Two Holy Mosques, cutting off sermons and prayers for him, expelling all their employees, and closing the doors of Hijaz to their convoys of pilgrims who did not adhere to Saudi teachings, as a basic condition for allowing the performance of the Hajj. For the Saudis in Hijaz. The study concluded that the Saudis' insistence on imposing their complete identity on the Hijaz did not leave the Ottoman government room for compromise and acceptance of the fait accompli. So it mobilized its media machine against the Saudis, implemented a stifling economic blockade on the Hijaz, and sought the help of its fiercest competitor - the governor of Egypt - to restore the Hijaz, knowing that it was no less dangerous than them, and then tasked him with restoring their lost prestige by eliminating their state once and for all, without caring about what it would become. The political and security situation in the region.

Keywords: Ottoman Government – Saudis- Muhammad ibn Abdalwahab- Sharif Ghalib – Diriyah.

المقدمة:

واجه العثمانيون في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري تحديًا خطيرًا من نوعه، تَمَثَّل في تمدد الدولة السعودية خارج نجد، واتساع نطاق هجماتها السريع؛ مما أثار لديهم قلقًا على وجودهم السياسي، في كلٍّ من العراق والشام. إذ وصل السعوديون شرقًا إلى القطيف والبحرين، والجزر المجاورة في الخليج العربي، وهاجموا الساحل الشرقي، ثم مملكة عمان؛ حتى تمكنوا من الوصول إلى المرتفعات المطلة على مسقط. أما جنوبًا؛ فضموا تِهامةَ وعسيرَ، ووصلوا بفتوحاتهم إلى سواحل اليمن؛ وزحفوا شمالًا نحو الجوف والبتراء وبوادي الشام. ثم تقدموا نحو حوران، حتى هددوا دمشق نفسها. وتأكدت مخاوف العثمانيين حينما ضم السعوديون الحجاز في القرن التاسع عشر إلى ممتلكاتهم الواسعة، في تحد صريح للوجود العثماني في شبه الجزيرة العربية.

ويعد التحدي السعودي للعثمانيين في الحجاز من أهم الأحداث في تاريخ العرب الحديث الجديرة بالدراسة والبحث نظرًا للأهمية الجغرافية والدينية للحجاز، فالسيطرة على هذه المنطقة ذات دلالة دينية وسياسية كبيرة. واللافت أن توسع الدولة الجديدة جاء متزامنا مع كبوة العثمانيين. وليس من قبيل المبالغة القولُ بأنهم كانوا يمرون بأسوأ وأضعف مرحلة في تاريخهم؛ ما جعلهم يذعنون للتوسع السعودي، ويقدمون طرحًا جديدًا يقوم على الموافقة على الحكم السعودي للحجاز، بدلًا عن حكم الأشراف، في مقابل الاحتفاظ بسيادتهم عليه حتى وإن كانت سيادة إسمية منقوصة.

وتكمن مشكلة البحث في إقناع السعوديين من أنصار الدعوة الإصلاحية، الذين ضموا الحجاز إلى نفوذهم، بقبول الطرح العثماني، واستثناء تلك الولاية من النفوذ السعودي الخالص، وعدم التعرض لكل ما يرمز لهيبة السلطان العثماني في الحجاز من ممارسات دينية ذات رموز سياسية لديه، ويعتبرها السعوديون منافية للعقيدة الإسلامية الصحيحة؛ وهم الذين عابوا على مجتمعاتهم في نجد وغيرها استحلالَ كثير من الأمور التي اعتبروها من المحرَّمات، وحملوا السلاح لتغييرها بالقوة. فهل سيوافق السعوديون على استثناء الحجاز من منظومتهم السياسة والدينية تحاشيا لغضب العثمانيين؟ وما مدى جدية التحدي السعودي؟ وما هي فرص السعوديين للاحتفاظ بمكتسباتهم السياسية والحربية، دون الإضرار بالنفوذ العثماني على الحجاز؟ وهل سيقبل العثمانيون التنازل عن بعض المظاهر الدينية والسياسية التي ترمز لهيبة دولتهم والاستسلام للأمر الواقع الذي لا طائل لهم بمقاومته عسكريًّا"؟

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال توطئة عن أطراف المواجهة والعلاقة بينهما ومراحل تطورها؛ وذلك بتقديم عرض موجز عن كيان الدولة السعودية الناشئ، وأوضاع الحجاز في العهد العثماني، والعلاقة بين السلطة العثمانية وأشراف مكة. يعقب ذلك توضيح لموقف الدولة العثمانية من الصراع السعودي–الشريفي. ثم تسليط الضوء على أوجه التحدي السعودي العسكري والسياسي والديني مع ذكر الأسباب. وتختتم الدراسة بخلاصة تضم نتائج التحدي السعودي. وتعتمد الدراسة المنهج الوصفي

التحليلي، بما يتطلبه ذلك من الرجوع إلى عدد من المصادر التي تعبر عن وجهات نظر مختلف الأطراف، وما يستلزمه من مجهود كبير لتحري الدقة والموضوعية؛ للوقوف على حقيقة المعلومات الواردة، والتي دُوِّنت تحت سلطة الدولة العثمانية وهيمنتها، فظهرت أغلبية المصادر متحيزة وبعيدة عن الموضوعية.

أولًا- التعريف بأطراف النزاع:

أ. الدولة السعودية الأولى:

ارتبطت الدولة السعودية الأولى ارتباطًا وثيقًا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، التي يمكن تلخيص أفكارها ومبادئها في الدعوة إلى التوحيد، وإفراد الله بالربوبية والعبودية، وتطهير عقيدة التوحيد من كل ما يشوبها من بِدَع وضلال، وكل ما يمسها من ممارسات شركية؛ كالتوسل لغير الله، والتبرك بالأولياء الصالحين، وزيارة قبورهم، وطلب الشفاعة منهم، وقضاء الحاجات. ويدخل ضمن ذلك بناء القِبَاب على القبور والأضرحة، وتزيين المساجد، وشرب التبغ، والعزف على آلات الموسيقى، وما إلى ذلك من الأمور التي لابد للمسلم من اجتنابها حتى يصحَّ إسلامُه.[1]

وفي المقابل، ترتبط هذه المبادئ بالدعوة إليها، والعمل على تطبيقها، وإزالة كل ما يخالفها، ولو اقتضى الأمر حملَ السلاح. وبناءً عليه؛ كان لابد لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من قوة سياسية وعسكرية وقَبَلية لتحقيق ذلك. وقد وجدت ضالَّتها في أمير الدرعية محمد بن سعود(1104–1179هـ/1727–1765م) الذي أدرك الدور المهم والمؤثر الذي من الممكن أن يلعبه العامل الديني في فرض سلطته ونفوذه على منطقة نجد وما جاوَرَها. ولهذا، أعتُبر تحالف الرجلان عام 1158هـ/ 1744م نقطةَ تحول مهمة في تاريخ الدعوة الإصلاحية؛ إذ حقَّق هذا الاندماج قوةً هائلة، حملت على عاتقها نشر مبادئ الدعوة، وإنشاء دولة إقليمية موحدة تتجاوز حدود الدرعية إلى معظم أراضي شبه الجزيرة العربية.

وقد تحاشت الدولة السعودية –وهي في طور نموها– الصدامَ بالقوى المحيطة بها، ثم تغيرت سياستها في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد (1132–1218هـ/1765–1803م) فبدأ نشاطها يتجاوز حدود نجد ليصل إلى الأحساء في شمال شرق الجزيرة العربية؛ بحثًا عن موقع إستراتيجي مهم، أو موارد اقتصادية، من شأنها أن تدعم سلطته في نجد[2]. لكن هذا التوجه، أثار مخاوف العثمانيين من امتداد الدولة السعودية إلى العراق، أو –من باب أولى– وصولهم إلى الحجاز؛ بحيث يحقق أتباع الدعوة غايتهم الدينية بنشرها هناك، وأداء فريضة الحج، التي حُرموا منها لسنوات[3].

ب. الأشراف والعثمانيون في الحجاز:

من المعروف ارتباط الحجاز بمصر تاريخيًّا؛ فهي عمقه الإستراتيجي، ومورده الاقتصادي المهم؛ لما توفره من مصادر مالية تصله سنويًّا في شكل إعانات مستمرة. واتخذ هذا الارتباط الإستراتيجي والاقتصادي صورة ارتباط سياسي خلال فترات تاريخية طويلة؛ ومن هنا كانت تبعية الحجاز للعثمانيين عقب استيلائهم

على مصر عام 923ه/1517م أمرًا طبيعيًّا، جرى بصورة آلية وبطريقة سلمية هادئة. ولم يُحدِث العثمانيون عقب سيطرتهم على الحجاز تغييرات كبيرة؛ إذ أبقوا الزعامة السياسية في يد حكَّامها من الأشراف، واحتفظوا لأنفسهم بسلطة قوية ومباشرة في جدة، من خلال تعيين أمير عثماني عليها، ومندوب عنهم في بعض مدن الحجاز الرئيسية. أما اقتصاديًّا؛ فقد اقتسم الطرفان إيرادات جمارك ميناء جدة الوفيرة. فيما تركت بقية موارد الحجاز –بما فيها إيراد ميناء ينبع– للأشراف، مقابل أن يحظى السلطان العثماني بشرف الخطبة باسمه، ويفوز بلقب خادم الحرمين الشريفين[4].

وبالرغم من تلك التبعية، لم يكن الطرفان على وئام تام؛ فالعثمانيون نظروا إلى شريف مكة على أنه شر لابد منه، وأن بقاء سلطته على الحجاز ستكون حجرَ عثرةٍ تمنعهم من تحويله إلى ولاية كغيرها من الولايات العثمانية[5]. أما شريف مكة؛ فكان مستاءً من نظام الحكم الثنائي المفروض عليه، ومن المكايد المستمرة التي تُدبَّر ضده من قِبل ممثلي السلطة العثمانية، الذين يتدخلون بين الحين والآخر في شؤونه الخاصة[6]. وخلال القرن الثامن عشر، ازدادت العلاقات سوءًا بين الطرفين، خاصة بعد النمو التجاري الكبير لميناء جدة، الذي أصبح من أكبر المراكز التجارية في البحر الأحمر والهند وجنوب شرق آسيا؛ وذلك عقب اضمحلال النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وبحر العرب. فكان العائد الاقتصادي الوفير لميناء جدة من أهم نقاط الاختلاف بين السلطتين الحاكمتين، خاصة من قِبل العثمانيين الذين حاولوا مرارًا الانفراد به، معتبرين أن ما يحققه موسم الحج من أنشطة اقتصادية كبيرة، ومتعددة الأوجه، كافٍ لإنعاش اقتصاد البلاد.

لكن مع ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها في القرن الثامن عشر، فقدت الكثير من سلطتها على الحجاز؛ بسبب الهزات العنيفة التي تعرضت لها خلال صراعها الطويل والدامي مع روسيا القيصرية، التي انتهت بخسارة أجزاء واسعة من أراضيها في حوض الدانوب وحول البحر الأسود. واضطر العثمانيون لتوقيع معاهدة كوجك– كينارجه عام1189هـ/ 1774م، التي فتحت الباب واسعًا لتدخلات الروس في شؤونها الداخلية، ثم ما تلا ذلك بعد أقل من عقدين؛ من قيام الثورة الفرنسية، وما رافقها من تطورات سياسية، كان أبرزها على الجانب العثماني، احتلال الفرنسيين لمصر عام 1213هـ/1798م، لتفقد الدولة أغنى ولاياتها، وأكثرها إستراتيجية؛ مما ترتب عليه انشغالها بالتحالف مع الإنجليز لمواجهة الخطر الفرنسي على المنطقة العربية. فالتزم العثمانيون –لقلة حيلتهم– الصمت، وغضوا الطرف عن تجاوزات شريف مكة المستمرة، حتى اقتصر نفوذهم في الحجاز –مطلع القرن التاسع عشر– على تظاهرة محمل الحج القادمة من الشام ومصر، والمصحوبة –عادةً– بعدد من الجند؛ لتُذكِّر وهي في طريقها إلى الأماكن المقدسة، الأشرافَ، والأعراب، بقوة الدولة وامتداد سلطتها. ولكن ما إن ينتهي موسم الحج، يعود الأشراف والبدو مرة أخرى سادةَ الموقف في الحجاز[7].

في حين ظل العثمانيون يترقبون الفرص لاستعادة بعض نفوذهم المسلوب، عن طريق إضعاف سلطة الأشراف، واستنزاف مواردهم المالية؛ وهي السياسة التي دأب العثمانيون علي اتخاذها مع جميع حكام

الولايات العربية الأخرى، والتي تقوم –تحديدًا– على زَجّهم في مواجهات إقليمية؛ كالتصدي للحركات الاستقلالية، أو قمع الثورات الداخلية. وهذا ما حدث بالضبط مع أشراف مكة في الحجاز، عندما كلفوهم بمهمة القضاء على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، لا سيَّما وأن السلطة في الحجاز كانت خلال قرون سابقة تنظر إلى نجد على أنها تابعة لسلطتها ومشمولة بنفوذها، ولا أدل على ذلك من الحملات العسكرية التي كان يقوم بها الأشراف بين الحين والآخر؛ لتأديب المناطق المختلفة في نجد، وجباية الإتاوات من سكانها[8]. وكان طبيعيًّا –والحال هكذا– أن تُثير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما رافقها من أنشطة دعوية وحربية، اهتمامَ أشراف مكة، بل والسلطة العثمانية في إسطنبول؛ خشية تهديد تلك الأنشطة لنفوذهم ومصالحهم في نجد، بل وإمكانية تهديدها لأمن الحجاز أيضًا.

لقد تطلب التفرد بزعامة الحجاز من شريف مكة تقديم الكثير من الأثمان والتضحيات، كان في مقدمتها الاعتماد على قاعدة كبيرة من التحالفات القَبَلية التي تتم بواسطة دفع مبالغ طائلة لزعماء البدو، وإنشاء جيش نظامي وقوي يعتمد عليه، عن طريق شراء أعداد من العبيد والزنوج[9] أو كثير من البدو، الذين يتم تطويع غالبيتهم في نجد واليمن وتهامة[10]. ومن منطلق حاجته للمال، اندفع إلى جمعه بشتى الطرق الممكنة؛ مما ورطه في مشكلتين أثرتا –بصورة غير مباشرة– في تدهور مركزه السياسي أثناء مواجهته مع السعوديين في مطلع القرن التاسع عشر. كانت المشكلة الأولى مع العثمانيين حول إيرادات ميناء جدة، والنزاع حولها؛ حيث تسبب ذلك في إثارة مخاوفهم من تزايد سلطته ونفوذه في الحجاز، فلجؤوا إلى التفكير في استنزافه ماليًّا وعسكريًّا. وتهيأت الفرصة لذلك بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، فدفعوهم دفعًا إلى أتون الحرب معهم.

أما المشكلة الثانية فكانت مع سكان الحجاز، الذين اعتمد عليهم –بشكل أساسي– في معالجة العجز المالي لخزينة دولته، وزيادة إيراداتها؛ ففرض على التجَّار ضرائب عديدة وباهظة أرهقت كواهلهم[11]. ويورد الجبرتي في هذا الصدد أمثلة عديدة في سياق حديثه عن طغيان الشريف وجبروته في فرض الضرائب؛ فمنها –مثلًا– الضريبة التي تؤخذ على دفن الموتى، والتي تقدر بخمسة إلى عشرة فرانسة، والتي يلزم أهل المتوفي دفعها، وإذا ما عجزوا عن ذلك، فإن ميِّتَهم لا يواريه الثرى حتى يأتيهم الإذن بالدفن. كما يجبر السكان –أحيانًا– على ترك مساكنهم ودورهم، وإخلائها إذا ما احتاج إليها الشريف[12]. هذا فضلًا عن الغرامات الباهظة التي كانت تُفرض على أبسط المخالفات، في حين كان بإمكان المجرمين أن يشتروا حياتهم بمبالغ ضخمة تُدفع نقدًا للشريف[13].ونتيجة لذلك، حُرم أشراف مكة من ولاء وعطف أهل الحجاز، وظهر ذلك عند أول مواجهة للشريف غالب، الذي حكم الحجاز خلال الفترة (1202–1228هـ/1788–1818م) أثناء حصار الجيش السعودي لمكة عام 1205هـ/ 1806م، عندما ثار قسم منهم عليه، وانضم الآخر إلى صفوف السعوديين؛ رغبةً في التخلص من حُكمه.

ثانيًا- الصراع السعودي – الشريفي وضم السعوديين الحجاز:

يمكننا تقسيم مراحل العلاقات السعودية – الشريفية إلى مرحلتين:

1-مرحلة المواجهة السلمية بين الأطراف 1145–1204ه/ 1744–1789م:

تمثل هذه المرحلة شكلًا من أشكال الحرب الباردة بين السعوديين والسلطة الشريفية– العثمانية. وقد بدأت هذه المرحلة من المواجهة بعد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانتشار صداها في الحجاز، خصوصًا أثناء موسم الحج، من خلال خصومها من حجاج نجد[14] الذين أخذوا ينقلون رواياتهم عن الدعوة الإصلاحية في نجد، وانتشارها هناك، وكيف أنها تتعارض مع كثير مما أَلِفوة من ممارسات دينية. وكانت معظم تلك الروايات –في الغالب– مشوهة، تصور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أنها نِحْلة جديدة، أو مذهب لا يُقِرُّه الإسلام.

ولم تشكل الدعوة الإصلاحية في بداية ظهورها تهديدًا حقيقيًّا لنفوذ أشراف مكة ومصالحهم في الحجاز، رغم التقارير التي كان يرسلها أشراف مكة إلى إسطنبول، وتحذيرات فِرَق المتصوفة، من أمثال البكتاشية[15]، والمولوية[16]، من تفاقم الخطر الوهابي في الجزيرة العربية. فجميع هذه التقارير ركزت على خطورة حدوث تغيير فكري– ديني في شبه الجزيرة العربية لا يخدم مصالحهم السياسية. ومن المستبعد جدًّا أن يكون العثمانيون والأشراف قد توقعوا حجم الخطر عليهم ومداه؛ فأسوأ الاحتمالات كانت تصدير مبادئ الدعوة إلى خارج نجد عن طريق الحجاج. ومن هذا المنطلق اكتفى العثمانيون بالإيعاز إلى أشراف مكة بالتصدي وحدَهم للدعوة قبل أن يستفحل خطرها، إلا إن حكام الحجاز، الذين أدركوا مغزى الطلب العثماني، تقاعسوا عن القيام بما طُلب منهم، وفضلوا مواجهتها سلميًّا؛ عبر إجراء المناظرات الدينية مع علماء الدعوة الإصلاحية، وإقامة الحجج والبراهين على فساد مبادئها؛ إذ لم تكن تستحق –في نظرهم– أكثر من ذلك. أمَّا عن تقاريرهم المرفوعة إلى إسطنبول، والمحذِّرة من الخطر (الوهابي) في الجزيرة العربية[17]، فلم تكن إلا من باب التهويل والمبالغة؛ لابتزاز الحكومة العثمانية؛ إذ كتب الشريف مسعود بن سعيد إلى حكومة إسطنبول عريضة عام 1162هـ/1749م، أشار فيها إلى وجود شخص من أهالي العُيَينة يُدعى محمد بن عبد الوهاب، يُصدر اجتهادات، ويطلب من السلطان العثماني إمداده بالمساعدات المادية والعسكرية؛ لكي يتمكن من القضاء على تلك الدعوة في مهدها[18]. وتعبر الوثيقة المؤرخة بتاريخ 1162هـ/1749م عن أول رد فعل للباب العالي تجاه الدعوة الإصلاحية، وفيها طلب السلطان العثماني من الشريف مسعود إقناع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالعدول عن دعوته، كما أمر عثمان باشا –والي جدة– بأن يعمل على التعاون والتنسيق مع شريف مكة؛ لمقاومة الدعوة، وحذَّرهما من أن أي تقاعس بخصوصها قد يؤدي إلى ظهور حاجة لاستخدام قوة عسكرية أكبر مستقبلًا. أما بخصوص التكاليف المالية؛ فتكفَّل الباب العالي بسدادها من إرسالية مصر لسنة 1163هـ/ 1750م[19].

لكن الشريف مسعودًا اكتفى باستغلال نفوذه السياسي والديني لإقصاء السعوديين، فأفصح في أول اتصال معهم عام 1164هـ/1751م عن رغبته في التعرف أكثر على الدعوة. ووفقًا لرواية دحلان؛ فإن السعوديين قاموا بإرسال ثلاثين عالمًا إلى الحجاز لهذا الغرض، ويصعب تصديق أن يكون لدى السعوديين في هذا الوقت المبكر هذا العدد من العلماء، وإنما الأقرب أن يكون هذا الوفد تضمن حجاجًا وعلماء ومفاوضين لتنظيم العلاقات بين الطرفين. ووفقًا لما ذُكر، تمت إساءة معاملة الوفد بعد أن ناقشهم علماء الحجاز، وتحقق لهم جهلهم؛ فقاموا بحبسهم ومنعهم من الحج[20]. ويتبين مما سبق، أن الشريف مسعود اكتفى بقطع الاتصال بالسعوديين، ومنعهم من أداء فريضة الحج. ويبدو أن هذا التصرف لم يُقنع العثمانيين؛ فجدَّدوا طلبهم بضرورة الحرب في عام 1179هـ/1765م؛ وذلك وفقًا لما جاء في رسالة السلطان مصطفى الثاني إلى عمر باشا والي بغداد، التي تضمنت أيضًا طلبًا مماثلًا صدر لشريف مكة، وأنه –أي الشريف– استجاب وأرسل حملة عسكرية؛ لمناصرة شيخ بني خالد وزعيم نجران ضد دولة الدرعية[21].

غير أن العلاقات أخذت في التحسن في عهد الشريف أحمد بن سعيد (1184–1187هـ/1770–1773م)؛ إذ كتب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام 1184هـ/1770م يطلب منه توضيحًا لدعوته، فأرسل له الشيخ وفدًا من الدرعية برئاسة عبد العزيز الحصين قاضي الوشم وأحد أبرز علماء نجد. ويذكر ابن غنام أن الوفد صحَّح كثيرًا من مبادئ الدعوة لدى علماء الحجاز؛ فتمكن السعوديون من أداء فريضة الحج في هذا العام[22]. ثم تجدد العداء مرة أخرى –كما تذكر المصادر– في عهد الشريف سرور بن مساعد (1185–1202هـ/1773–1788م)؛ إذ مَنَع السعوديين في أول سنة من حكمه من أداء فريضة الحج. ولكن بعد أن يئس الأشراف من استدرار الأموال من الدولة العثمانية بدعوى محاربة السعوديين، لجؤوا إلى ابتزاز السعوديين أنفسهم؛ وذلك بفرض الجبايات، وطلب الأموال والهدايا مقابل السماح لهم بالحج؛ إذ عاد الشريف سرور واشترط عليهم دفع رسوم كتلك التي تؤخذ من الأعاجم، وطلب منهم تقديم مائة من الإبل مقابل السماح لهم بدخول مكة[23] فرفض السعوديون طلبه، باعتبار ذلك إهانة بالغة لهم. لكن بعد عامين من المنع، سُمح لهم بأداء فريضة الحج، بعد أن قدَّموا للشريف سرور هدايا قيِّمة[24].

يتضح مما سبق أن أشراف مكة لم يشعروا بخطر حقيقي من الدعوة، وبالتالي لم يُقيموا لها وزنًا، ولم يتخذوا في حقها إجراءات حازمة كما طُلب منهم؛ لذا اكتفوا بقطع الاتصال بالسعوديين، ومنعهم من أداء فريضة الحج. وخلال تلك الفترة، قام كل طرف بتشويه عقيدة الآخر وممارساته؛ في حين اتهم أتباع الدعوة الإصلاحية العثمانيين وأشراف مكة بالشرك، من منطلق تمسكهم بالبدع[25]. وبنهاية القرن الثامن عشر، انتهت هذه المواجهة السلمية دون أن تحقق نجاحًا حاسمًا لأيٍّ من الطرفين، وإن كان السعوديون نجحوا في توضيح حقيقة دعوتهم أمام الملأ، وتصحيح بعض ما أُثير حولها من أباطيل، وإن ظلوا عاجزين عن كسب تأييد أغلب سكان الحجاز؛ لأن هذا التأييد ظل مرهونًا بثلاثة عوامل:

الأول: أن كل ما اعتبرته الدعوة الإصلاحية منافيًا للعقيدة الإسلامية الصحيحة من بِدَع وضلالات، كان يجد له بين سكان الحجاز مجالًا واسعًا[26]؛ حيث إن تقاليدهم وممارساتهم الدينية التي اعتادوها، وأقرها مشايخهم جيلًا بعد جيل، تصطدم مع مبادئ الدعوة التي تصف ما يمارسونه بأنه لون من ألوان الشرك؛ لذلك لا عجب أن واجهت الدعوة معارضة قوية هناك، ونُظر إلى أتباعها على أنهم مُحدِثون، لا يتورعون عن قتال من يخالفهم؛ لذلك تملكت الرهبة من قلوب سكان الحجاز تجاه الدعوة، ونفروا منها ومن أتباعها.

الثاني: يتمثل في حجم الضرر الاقتصادي الكبير الذي سيلحق بالسكان ممن يعتمدون في مصالحهم على العثمانيين والأشراف، وعلى كثير من الأماكن التي كان يُنظر إليها على أنها ذات قدسية خالصة، تجلب لهم المنفعة المادية[27].

الثالث: لا يُستثنى دور العامل الاجتماعي؛ فالنظرة الدونية التي كان يحملها أهل الحجاز إلى أهالي نجد، الذين كانوا وقتها على درجة كبيرة من التخلف العلمي والفقر المادي، كانت ذات تأثير عكسي في تقبُّلهم فكرة الإصلاح الديني من مجتمعٍ أقصى ما يمكن أن يصل إليه الفرد فيه هو إجادة القراءة والكتابة[28]. ونستطيع أن نلمس –بوضوح– تأثير تلك النظرة الاجتماعية، من خلال ما كتبه مؤرخو الحجاز، وتعليقاتهم الساخرة على أشخاص الدعوة[29].

ومهما يكن الأمر، فإن أشراف مكة أدركوا أن كسب الحرب الدعائية لم تكن بالمهمة السهلة كما توقعوا؛ نظرًا للتأثير العميق الذي أحدثته الدعوة في نفوس قطاع كبير من المسلمين؛ انطلاقًا من نجاحها الباهر في نجد، وسرعة انتشارها في الأقاليم المجاورة، فكان ذلك برهانًا لدى الكثيرين على صحة عقيدة السعوديين، وإتمامًا لوعد الله –عز وجل– بنصر عباده المؤمنين.

2-مرحلة المواجهة الساخنة:

أ. الضغوط العثمانية:

كان من الممكن أن يكتفي الشريف غالب باستئناف الحرب الدعائية التي بدأها أسلافه لحصار الدعوة، لولا أن طرأ تغيير في الأوضاع السياسية والعسكرية في تلك الفترة، تمثَّل في تفاقم الخطر السعودي في شرق الجزيرة العربية، بحيث أصبح يشكِّل خطرًا مباشرًا على النفوذ العثماني في العراق. وعليه؛ بدأت السياسة العثمانية في التعامل بحزم مع المسألة السعودية عبر استنهاض وُلاتها في البصرة وبغداد ومكة؛ للقيام بهجوم مزدوج يقضي على السعوديين في عقر دارهم. فاضطر العثمانيون –نتيجة لذلك– إلى تغيير إستراتيجيتهم مع أشراف مكة، فساندوهم، على الرغم من عدم رضاهم التام عنهم؛ لأن الخوف من السعوديين فاق حذرهم من نفوذ الأشراف المتعاظم، وجعلهم يغضون الطرف عن تجاوزاتهم؛ للتفرغ للتهديد السعودي. ولم يكن تزامُن هجوم الشريف غالب على نجد مع قُرب استيلاء السعوديين على الأحساء إلا دليلًا على

التعاون المشترك؛ كي تتعثر حملاتهم العسكرية هناك. ويصف أيتالنسكي –سفير روسيا في الأستانة– الترتيبات المحتمل اتخاذها لمواجهة الخطر السعودي، بأنها ستتم من خلال جبهتين؛ الأولى من جهة الخط البادئ من البصرة إلى العريش. أما الثانية؛ فستتم في نجد من جهة الحجاز، ويكلَّف الشريف غالب بتلك المهمة[30].

ازداد إلحاح العثمانيين على سليمان باشا (الكبير) (1137–1217هـ/1724–1802م) –أحد ولاة العراق وكان من المماليك– بإنفاذ حملة عسكرية ضد السعوديين، بعد أن ظلوا يحرضونه طوال سبع سنوات؛ لأنه –كما يقول روسو، القنصل الفرنسي في حلب– الوحيد الذي يستطيع أن يشكِّل قوة من القبائل المماثلة للقبائل المناصرة "للوهابيين"، قادرة على مواجهة السعوديين؛ طمعًا في الغنائم، أو المرتبات الثابتة[31]. كما أن ولايته هي أقرب الولايات العثمانية إلى الدرعية عاصمة السعوديين؛ مما سيسهل من مهمته[32]. إلا أن سليمان باشا رأى –كغيره من الولاة– أن إرسال حملة عسكرية إلى الدرعية، واجتياز مساحات واسعة من الصحراء، هو نوع من الانتحار[33] بسبب مشاكل التمويل التي ستكبد ماليَّته مبالغ ضخمة. إضافة إلى أن التهديدات الإيرانية القائمة، واضطرابات العشائر العراقية المتكررة على الحدود، ستجعل أيَّ والٍ يقف على أطراف أصابعه؛ تهيبًا من تلك المواجهة. ولكن مع اقتراب الخطر السعودي على حدوده، لم يجد سليمان باشا بُدًّا من الاستجابة لطلب العثمانيين، فتم إنفاذ حملتين عسكريتين ضد السعوديين في الأحساء؛ كانت الأولى عام 1202هـ/1787م بقيادة ثويني بن عبد الله، زعيم قبيلة المنتفق، وانتهت بمقتل قائدها دون أن تحقق نصرًا. أما الحملة الثانية؛ فتم إنفاذها عام 1213هـ/1798م، كما سيأتي لاحقًا.

من جهة أخرى، حاول الشريف غالب هو الآخر التملص من إلحاح العثمانيين المتزايد بقتال السعوديين، فعرض على السعوديين استئناف المناظرات الدينية، مفضِّلًا المواجهة الفكرية. فأرسل له السعوديون وفدًا حمل معه خطابًا من الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى علماء البيت الحرام[34]. ويظهر من محتوى الخطاب، أن الشيخ كان شديد الحرص على توضيح حقيقة دعوته والدفاع عنها، وحمل خطابه كثيرًا من عبارات الود والاحترام للشريف غالب. ووفقًا لما ذكرته المصادر، فإن الشريف تقبَّل الخطاب، وطلب من علماء الحجاز مقابلة الوفد والاطلاع على حقيقة الدعوة. إلا أن علماء الحجاز رفضوا حضور المناظرة[35]، وحرضوا الشريف غالبًا على الدعوة وأنصارها، بحجة أنها لم تأتِ بجديد، وأن الهدف من ورائها الاستيلاء على مُلكِه ومُلك أجداده[36]. ويذكر صاحب لمع الشهاب أن الشريف غالبًا ما إن سمع بذلك حتى ارتعد خوفًا[37]. ولعل ذلك ما دفعه إلى إعلان الحرب بعد عام واحد من الحادثة. ويذهب ابن عثيمين في تفسير موقف علماء الحجاز إلى القول بأنه كان بإيحاء من الشريف غالب، وأن الغرض من إظهار المودة هو إخفاء ما يخطط له من عمل عسكري ضدهم[38]. ويبدو أن الأرجح هو محاولة غالب كسب ود السعوديين في هذه المرحلة لسببين: الأول تحسبا من خيانة العثمانيين له وحدوث تقارب سعودي– عثماني ضده. والثاني عدم تهديد السعوديين لملكه في الحجاز في هذا الوقت تهديدا مباشرا.

ب. دخول الشريف غالب في المواجهة:

طرأ تغيير في إستراتيجية غالب مع السعوديين؛ إذ وافقت السياسة العثمانية التحريضية رغبته في القضاء على السعوديين، انطلاقًا من المبدأ القائل: إن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم؛ بعد أن رأى نجد كلها تدين لآل سعود بدوًا وحَضَرًا، ودخول بني خالد في الأحساء تحت سيادتهم كما يذكر صاحب لمع الشهاب، على اعتبار أن استمالة السعوديين لقبائل الجزيرة العربية كان عملًا عدائيًّا موجَّهًا ضد الشريف غالب شخصيًّا[39]. فافتتح أول المواجهات العسكرية بحملة تأديبية عام 1205هـ/1791م؛ لمنعهم من التعرض للقبائل الواقعة ضمن دائرة نفوذه في نجد[40]. ووصلت تلك الحملة إلى منطقة السر في عالية نجد، لكنها اضطرت للعودة مع اقتراب موسم الحج. ثم توالت بعد ذلك الحملات الحجازية على نجد، لكنها مُنيت جميعًا -كما تذكر المصادر- بالفشل. وليست الكارثة في هذا الفشل فحسب، بل في نجاح السعوديين في قلب المعادلة والتوغل داخل أراضي الحجاز؛ فتحول الشريف من موقع الهجوم إلى الدفاع. واستمرت القوات السعودية في زحفها، حتى التقت بجيش غالب في منطقة الخرمة، التي تقع شرق الطائف في عالية نجد الجنوبية في وادي تربة)، وذلك سنة 1212هـ/1796م. وأسفرت تلك المواجهة -كما يحدثنا ابن بشر- عن مقتلةٍ وغنيمة للسعوديين[41]. فأُجبر الشريف غالب على أن يعيد النظر في إستراتيجيته؛ فلجأ إلى تجميد المواجهة الحربية مع السعوديين ريثما يستعيد ولاء كثير من القبائل التي انشقت عنه؛ مثل: قبائل عتيبة، والبقوم، وقحطان، والدواسر[42]. وتم الاتفاق مع السعوديين على تحديد دقيق لانتماء القبائل التي ستتبع الطرفين؛ فأصبحت القبائل الواقعة ضمن نفوذ الشريف غالب هي التي تقطن حول مكة والمدينة والطائف؛ كبني سعد وناصرة وبجيلة وغامد، وزهران والمخوة وبارق ومحايل وغيرها، ويكون ما عداها من قبائل الحجاز خاضعًا لآل سعود، بما في ذلك قبيلتا حرب وجهينة قرب المدينة[43]. لكنَّ السعوديون كانوا أكثر دهاء، عندما استغلوا فترة الصلح وانهماك الشريف غالب في ترتيب أوضاعه الداخلية، فتوغلوا جنوبًا حتى وصلوا إلى بيشة، ثم إلى رنية جنوب مكة، وكانت معظم القبائل والبلدان الممتدة على طول هذا الطريق تَدِين بالولاء لهم[44].

وبالاتفاق على الصلح، أُسدل الستار على فصل من فصول المواجهة الساخنة بين السعوديين والشريف غالب، بعد أن برهن السعوديون على تفوقهم العسكري؛ بنقل المعركة إلى داخل أرض الحجاز، ونجحوا في كسر حاجز الخوف والرهبة من قوة جيش الشريف[45]. أما الشريف غالب نفسه؛ فقد أثبتت نتائج المواجهات العسكرية أن قراره بشنِّ الحرب على السعوديين كان خطأ إستراتيجيًّا كبيرًا؛ لأنها أنهكت قواه العسكرية، وساهمت -إلى حد كبير- في تدهور العلاقات السياسية بينه وبين السعوديين، بحيث لم يَعُدْ هناك مجال لتحسينها[46].

ومن جهة أخرى، كان على السعوديين أن ينقلوا أرض المعركة فورًا إلى التخوم الشرقية؛ لمواجهة الهجوم العراقي الثاني المتجه نحوهم؛ لعرقلة تقدمهم داخل الحجاز. وهو ما يعكس حجم الخوف الذي انتاب العثمانيين من الانتصارات السعودية المتتالية. فأعدَّ واليهم على بغداد قوة قوامها خمسة آلاف جندي، مؤلَّفة من عشائر شمر والمنتفق والضفير، وعيَّن على قيادتها وزيره علي باشا كيخيا، فاتجهت نحو الأحساء في أواخر عام 1213هـ/1798م، إلا أنها فشلت هي الأخرى في الظفَر بالسعوديين، واضطر قائدها للانسحاب بعد عقد معاهدة صُلحٍ معهم.

وليس في تفاصيل الحملة ما يسوّغ لنا تناولها سوى الاتصال الذي جرى بين الطرفين السعودي والعراقي؛ والذي تُوج بصلح بين الجانبين نص على إخلاء الأحساء من الجيش السعودي، ودفع السعوديين لغرامة مالية، وإرجاع المدافع التي استولوا عليها من الجيش العراقي. ومن المفارقات اللافتة قبول السعوديين تلك الشروط المجحفة، رغم المنجز الحربي الذي قدموه في تلك المواجهة. ولا يجد الباحث تبريرًا مقنعًا لذلك التنازل، سوى محاولة السعوديين تهدئة الأوضاع، وطمأنة العثمانيين بعدم التعرض لأملاكهم في الجزيرة العربية. وهو ما عبَّر عنه قائد الجيش السعودي سعود بن عبد العزيز صراحة لعلي كخيا، قائد الجيش العراقي، عندما أعرب عن دهشته من عداء العثمانيين لهم رغم عدم تعرض السعوديين لأي من أملاكهم في الجزيرة العربية، مذكرًا أن الأحساء ليست من ضمنها[47]. ويُفهم من ذلك أن القائد السعودي أراد إيصال رسالة واضحة للعثمانيين، مفادها أن الحجاز والعراق ستظل في مأمن من الهجوم السعودي، وهذا يعد أول اعتراف (مبطن) من السعوديين بالنفوذ العثماني على المناطق المجاورة؛ ولا يهمنا كون الاعتراف كان عن اقتناع أو من باب المواربة، لكن المهم إن هذا التلميح من المفترض أن يترك صدى حسنًا لدى العثمانيين، ويمهد الطريق لإيجاد تفاهم مشترك بين الجانبين، لا سيما وأن العثمانيين كانوا على استعداد لدفع أي ثمن للاحتفاظ بالحجاز، حتى لو كان التخلي عن شريف مكة. فمسألة التضحية بحكم الأشراف واستبداله بقوة فتية تحفظ أمن الحجاز، وتضمن سيادة العثمانيين عليها، تبدو أكثر الحلول منطقية، في ظل العجز الدفاعي الذي تعانيه إمبراطوريتهم. وهذا ما يفسر غضب الشريف غالب واستياءه البالغ من الموقف العثماني في الرسالة التي بعث بها للسلطان العثماني يحتج فيها على الصلح مع السعوديين[48].

ومن حُسن حظ الشريف غالب، أن المصالحة بين الجانبين لم تستمر طويلًا بسبب تحرش بعض العراقيين بالجيش السعودي، مما أفضى إلى انتقام سعودي قوي تمثل في اجتياح مدينة كربلاء العراقية–أقدس مدن الشيعة، والواقعة ضمن نطاق السيادة العثمانية– في أول أبريل من سنة 1217هـ / 1802م؛ فعرَّض السعوديون بهذا العمل سمعة وهيبة الدولة العثمانية لاختبار عسير؛ إذ بَدَتْ عاجزةً عن الدفاع عن ممتلكاتها، وأرواح رعاياها، أمام شاه إيران، الذي لجأ إلى التهديد بالتدخل العسكري المباشر لحماية مقدسات الشيعة إذا ما عجز العثمانيون عن ذلك[49]. واقترح والي بغداد الاستعانة بالبريطانيين الموجودين في الخليج؛ لحمايتهم من السعوديين خوفًا من تكرار العملية، إلا أن العثمانيين رفضوا اقتراحه بشدة[50].

وفضَّلوا التريث، وانتظار ما ستُسفر عنه الأمور مع الشريف غالب، والذي باتت الآمال معقودة عليه للتخلص من الخطر السعودي بعد أن أُسدل الستار عن الدور العراقي؛ الذي رفض ولاته المساهمة مستقبلًا إلا في حالة تشكل تحالف إقليمي يضمهم مع ولاة الشام ومصر[51]. وكانت هذه المرة هي الأولى التي تُطرح فيها مشاركة جهات أخرى في المواجهات الحربية. ويرجع ذلك الاشتراط إلى اختلاف ميزان القوة لصالح السعوديين وعجز العراق وحده عن مواجة القوة السعودية الضاربة.

ج. فترة الصلح ونشاط السعوديين:

استغل السعوديون فترة الصلح مع الشريف غالب في الإعداد لجولة ثانية من الحرب؛ إذ قاموا باستمالة معظم قبائل الجزيرة العربية لجانبهم، فكان ذلك من أعظم إنجازاتهم السياسية؛ لأن ذلك الاستقطاب لعب دورًا رئيسًا في خلق كيان سياسي موحَّد للدولة السعودية فيما بعد، عندما شكَّلت تلك القبائل القاعدةَ التي انطلقت منها القوات السعودية لنشر مبادئ دعوتها، ومِن ثَم ضم المناطق المجاورة لها، مثلما حدث في الحجاز عندما مارست قبائله دعاية ناجحة للدعوة بين جيرانها، دون أن تُقيم أيَّ اعتبار للحدود السياسية بين القوتين المتنازعتين[52]. فقُدرة السعوديين الفائقة على استقطاب القبائل تعود –في الأساس– إلى تنويع أساليبهم بين الشدة واللين في التعامل، ولا شك أن قسمًا من تلك القبائل تأثر بمبادئ الدعوة السهلة والبسيطة، واعتنقها عن قناعة ورغبة، بحيث لم تحرمهم ما اعتادوه سابقًا من أساليب بدوية كانت ترمز لديهم إلى الرجولة والشجاعة، وإنهم في صفوف السعوديين سيحاربون من أجل مبادئ أسمى وأنبل. إلا أن ذلك لا يمنع القول بأن بعض القبائل التي أعلنت ولاءها للسعوديين أُرغمت تحت تأثير قوة السلاح. لقد دخلت تحت نفوذهم معظم قبائل نجد، كما انضم إليهم عدد من زعماء الجنوب ممن كانوا سابقًا حلفاء للشريف؛ كقبيلة زهران وغيرها، فدانت لهم قبائل الجنوب بأسرها، وانضوى تحت لوائهم معظم شيوخ قبائل الحجاز ممن لعبوا دورًا بارزًا في مدِّ النفوذ السعودي هناك[53]، وعلى رأسهم شيخ قبيلة بني عدوان وصهر الشريف غالب؛ عثمان المضايفي[54]. فكان طبيعيًّا –والحال هكذا– أن يُثير هذا الاستقطاب القبائلي غضب الشريف غالب، فاتَّهم السعوديين عام 1218هـ1803م بإفساد العلاقة بينه وبين القبائل، التي كان آخرها قبيلتي محايل وبارق[55]. في حين لم يجد السعوديون في هذا "الانتماء السلمي" خرقًا لاتفاقية الصلح؛ انطلاقًا من قناعتهم بعدم حصر دعوتهم داخل نجد فقط.

د. استئناف المواجهة بين السعوديين والدولة العثمانية:

اجتياح السعوديين الحجاز (المرحلة الأولى):

تشكل الفترة التاريخية (1213–1218ه/1798– 1803م) أحد أهم التحديات المباشرة للدولة العثمانية، والعامل الحاسم في انهيار النفوذ العثماني في الحجاز؛ إذ تزامنت هذه المرحلة من التحدي مع انشغال العثمانيين بمواجهة الاحتلال الفرنسي لمصر عام 1213ه/ 1798م وتداعياته؛ لذلك لم يُولوا تقدُّمَ القوات

السعودية داخل الحجاز الاهتمام الذي يستحقه. ليس ذلك فحسبُ؛ بل إنهم طلبوا من الشريف غالب المساهمة في المواجهة ضد الفرنسيين عبر البحر الأحمر. ويمكن أن نتصور حجم المسؤولية الواقعة على الشريف، من خلال الرسالة التي بعثها إلى إمام اليمن عام 1216هـ/1801م، وفيها يناشده التعاونَ معه لصد نزول الفرنسيين على شواطئ البحر الأحمر(56). هذا علاوة على ما أوردته المصادر عن خروج مئات من أهل الحجاز إلى مدن وقرى مصر؛ للجهاد ضد الفرنسيين(57)؛ مما يعطي صورة واضحة عن حجم القلق السائد آنذاك، ومن هنا يمكننا القول إن اختيار السعوديين لهذا الوقت بالذات، لم يكن مجرد صدفة؛ بل كان استغلالًا ذكيًّا لحالة الفوضى السائدة في الدولة العثمانية(58).

وقبل الحديث عن التفاصيل العسكرية التي رافقت دخول السعوديين الحجاز، لابد من الإشارة إلى السبب الرئيس الذي دفعهم لخوض التحدي. فبالإضافة إلى ما سبق ذكره، كان شعورهم بالتفوق العسكري، والتباين الكبير في ميزان القوى مع خصومهم -كما ظهر في معركة الخرمة وكربلاء- قد شجعهم على التمدد نحو الحجاز، وإقامة دولة ذات صبغة دينية مترامية الأطراف، تضم -بطبيعة الحال- الأراضي المقدسة. وكان الأمر الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ في الاعتبار هو مسألة احترام قدسية الحرمين الشريفين. أما مسألة المكانة الدينية للسلطان العثماني -بوصفه زعيمَ العالم الإسلامي، وخادمَ الحرمين الشريفين- فلن تكون ذات أهمية كبيرة في نظرهم؛ لأنهم لم يعترفوا أصلًا بهذا النفوذ.

وقد شكَّل استيلاء السعوديين على الطائف، حديقة مكة الخلفية(59)، أول التحديات الخطيرة للوجود العثماني-الشريفي في الحجاز؛ فسقوطُها كان يعني سقوط أهم حصون مكة الأمامية، وهو ما ترجم واقعيًّا استهتارهم بالسلطة العثمانية وولاتها في المنطقة. وبعيدًا عن أحداث الحصار وتفاصيله، فإن ما آلت إليه الأمور هناك من تجمُّع القبائل من كل صوب حول الطائف، وفرض طوق حربي على الشريف غالب، ثم خروجه منها ذليلًا مع عساكره وأنصاره، ثم دخول السعوديين الطائف، وما رافقه من سقوط ضحايا، قد زاد من خيبة أمل العثمانيين في الأشراف، وفي مقدرتهم على الدفاع عن الحجاز. أما هم؛ فأنظارُهم وقتها كانت ترقب ما يجري على أرض مصر؛ لذلك وقفوا موقف المتفرج، ولم يجدوا بُدًّا من التعايش مع الأمر الواقع في هذا التوقيت الصعب، وتقديم بعض التنازلات؛ للوصول إلى تفاهم مع حكام الدرعية. وفرض هذا التوجه العقلاني نفسه على أعضاء مجلس الشورى العثماني، فقدموا اقتراحًا في جلستهم المنعقدة آخر جمادى الآخرة 1217هـ/ 1802م نصَّ على إيفاد مندوب عثماني إلى الدرعية، وكُلف بإيصال رسالة من الصدر الأعظم إلى الإمام عبد العزيز، لعل الحوار والسياسة تحقق للعثمانيين ما عجزت عنه الحروب. ودلَّ اختيار الحكومة العثمانية لشخصية دينية لأداء تلك المهمة(60) على عدم استيعاب الإدارة العثمانية جديةَ التحدي السعودي، وإصراره على انتزاع الحجاز وغيرها من أقاليم شبه الجزيرة العربية، وأن الخلاف بينهما ليس كما تصوروا مجرد خلاف عقائدي قابل للمزايدة، بل كان تحديًا وجوديًّا، لم يستوعبه العثمانيون إلا عندما دفع المندوب العثماني حياته ثمنًا لسوء تقديرهم(61). فاضطروا بعد هذا الرد العنيف إلى العودة مجددًا

لسياستهم السابقة في المقاومة، فكلفوا واليهم على الشام عبد الله باشا العظم بالتصعيد الحربي، لكنَّ السعوديين كانوا أسرع، عندما نقلوا أرض المعركة –ببراعة– من حدود العراق الغربية إلى مكة، مستغلين حالة الرعب التي سادت عقب اقتحام مدينتي كربلاء والطائف، فكان ذلك برهانًا على جدية التحدي، واستعراضًا لمقدرتهم العسكرية الفائقة في الحشد والتحرك[62].

ومثَّل اختيار موسم حج عام 1217ه/1802م لبدء حصار مكة تحديًا قويًّا للسلطة العثمانية نفسها؛ فمن المعروف أهمية تلك الفترة بالنسبة لهم، حيث تَفِدُ قوافل الحجيج من مصر والشام عبر طرق الحج مصحوبةً بحراسة القوات العثمانية وحمايتها، لتجد حصارًا خانقًا على منافذ البلد، وقد منعوا وصول أيِّ مساعدات عسكرية أو غذائية لسكانها، كما قطعوا المياه عنها بتغيير مجرى قناة عرفات[63]. وللقارئ أن يتخيل وضع الشريف غالب الذي يئس من المساعدة بعد اعتذار سليمان باشا أمير الحج الشامي عن البقاء في مكة عقب انتهاء موسم الحج، بسبب تدهور الأوضاع الأمنية والاقتصادية[64].إذ وجد الشريف غالب نفسه وحيدًا يدافع عن مكة بعد أن فشل في طلب المساعدة الخارجية، فخرج منها متوجهًا إلى جدة؛ لحشد قوة تمكِّنه من نجدة عاصمته، ودعم أخيه عبد المعين الذي وضعه في حكم مكة مؤقتًا، لكن الأخير وافق على الاستسلام بعد أن فقد الأمل في المساعدة، وبعث وفدًا من البيت النبوي لمفاوضة سعود بن عبد العزيز على ذلك. ونتيجة لذلك؛ أخذ سعود من الأشراف والأهالي البيعة له[65]. وقام بتفريق العطايا والصدقات على أهالي مكة وفقرائها[66]. وأزال الأضرحة والقباب، وهدم القبور وكل ما يخالف مبادئ الدعوة الإصلاحية[67]. وقبل أن يغادر مكة، وضع حامية عسكرية تُرابط في مدخل البلد، وأخرى تحت قيادة عبد الوهاب أبي نقطة في بستان الشريف غالب[68]، وكان عدد أفرادها 400 مقاتل[69].

وتثير ضآلة عدد أفراد القوة السعودية التي تركها سعود بن عبد العزيز، تساؤلًا حول جدية التحدي السعودي ومغزاه؛ فهل كان لمجرد استعراض القوة؟ أم هو اختبار لصبر العثمانيين وتحملهم؟ يبدو أن غموض الموقف العثماني هو ما دفع السعوديين إلى العودة وترك البلد بهذا الوضع؛ لإظهار أن الأمر مجرد خلاف شخصي بين السعوديين والشريف غالب، فيُحمِّلونه بذلك مسؤولية ما وقع من أحداث، ويدعمون في الوقت نفسه الخيار العثماني بوراثة حكم الأشراف في الحجاز، لا سيما وهم يستعدون للخطوة التالية الأكثر تحديًا للعثمانيين، وأعني بها حصار جدة، فيظهر الموضوع وكأنه تعقب طبيعي لعدوهم الشريف غالب المختبئ هناك؛ فيثبتون بذلك حُسن نيَّاتهم تجاه العثمانيين باحترامهم قدسية البلد الحرام، وعدم التعرض للنفوذ العثماني بسوء، سوى ما يتعارض مع معتقدهم الديني.

وبحسَب الروايات التاريخية، اتجه السعوديون مباشرة لحصار جدة بعد أن فرضوا سلطتهم على مكة؛ حيث تتمركز الحكومة العثمانية، والوالي والموظفون الأتراك. وبحسب الروايات المذكورة، لم يُكمل السعوديون حصارها، واضطُروا للانسحاب بعد أسبوع واحد. ويُرجع بوركهارت سبب الانسحاب إلى الاتفاق مع الشريف غالب على دفع خمسين ألف دولار[70]، مقابل السماح له بالعودة لحكم مكة، وعدم منعهم من

الحج. وهذا التفسير لا ينفي أن يكون السعوديون قرروا –فعلًا– الاحتكام للعقل، وتجنب الاحتكاك المباشر بالعثمانيين في تلك الفترة. فالمواجهة إن حدثت فسوف تكون كارثية على جميع الأطراف، ومن الصعب معرفة ما ستؤول إليه في ظل التحالفات القبلية والإقليمية. ومن هذا المنطلق فضَّلوا البقاء عند أسوار المدينة شهورًا، وكان باستطاعتهم اقتحامها. واكتفوا بالحرب الدعائية بعد أن أسندوا مهمة الحصار لقبيلتي حرب وجهينة، فأنشؤوا قلعة حصينة في منطقة العوالي الواقعة جنوب شرق المدينة المنورة، وكانت بمثابة مركز إعلامي لنشر الدعوة الإصلاحية، إلى جانب دورها الاستخباراتي في الإشراف على الأوضاع ومراقبة الحصار، على أمل إحداث تصدع في جبهتها الداخلية[71]. وكانت الأمور تسير لصالحهم، لولا استماتة سكان المدينة في الدفاع عنها بعد ارتفاع روحهم القتالية بسبب فشل حصار جدة. فحفز ذلك الكثير ممن انضم إلى السعوديين قسرًا على أن يعلن عصيانه[72]. وهنا لا يمكننا إنكار مقولة إن السعوديين تجنبوا اقتحام المدينة عنوة؛ احترامًا لقدسيتها، وحتى لا يتم التشهير بهم كما حدث مع دخولهم الطائف، لكن ذلك لا يلغي فرضية تجنب المواجهة مع العثمانيين في تلك الفترة، مع إمكانية تحقيق مكاسب سياسية. ويُطلعنا اقتراح من أهالي المدينة إلى الصدر الأعظم بتاريخ 1219هـ/1804م بعزل الشريف غالب، وآغا الحرم؛ حتى يكفَّ السعوديون أيديهم عن الحجاز[73]. وذلك للانطباع السائد الذي نجح السعوديون في إيصاله للجميع؛ من أن هذه الحرب مجرد تصفية حسابات شخصية، لا سيما مع ترك القائد السعودي للجبهة وعودته سريعًا للدرعية.

وكان ترك سعود بن عبد العزيز الحجازَ في تلك الظروف، وعودته المفاجئة لعاصمته، فرصة للشريف غالب لاستعادة مكة، وكسب الوقت قبل أن تُثمر سياسة السعوديين في خطب ودِّ العثمانيين. فمارس في هذه الأثناء نشاطًا سياسيًّا مكثفًا؛ بحثًا عن مساعدات عسكرية لطرد الحاميات السعودية من الحجاز؛ فرحل إلى مصر، ومنها الى إسطنبول[74]. ولم يمدَّه العثمانيون سوى بعدد قليل من الجنود[75]. وإن صدقت تلك الرواية، فإنها المرة الأولى التي يساهم فيها العثمانيون بقوات عسكرية وافدة من إسطنبول مباشرة لهذا الغرض. هذا إذا ما استثنينا مشاركة والي جدة بقوة عسكرية صغيرة[76]. ويذكر المؤرخ ابن عبد الشكور أن الشريف غالبًا طلب أيضًا مساعدة أحمد بن سعيد، سلطان مسقط، فزوَّده الأخير ببعض المال والذخيرة والأسلحة، ووفر له فرقة عسكرية صغيرة[77]. وبتلك المساعدات المتواضعة، دخل الشريف غالب مكة، وتسلَّم الحكم من أخيه عبد المعين، واستطاع استعادة مدينة ينبع، بينما عجز عن إخضاع الطائف، رغم محاولاته المستميتة لطرد غريمه المضايفي منها.

السعوديون يستعيدون الحجاز (1220هـ/1805م):

بعد أقل من عامين فقط على نجاح التجربة العسكرية الأولى، أعاد الإمام سعود –الذي خلف والده على الحكم– حصار مكة، بإرادة جدية في التصعيد مع شريف مكة، تحت شعار "لا صوت يعلو على صوت المعركة". فتولى بنفسه قيادة الجيش، وإلى جانبه ثلاثة من أخلص قادته، هم: سالم بن شكبان[78]،

والمضايفي أمير الحجاز، وعبد الوهاب أبو نقطة زعيم قبائل عسير[79]؛ فقاموا بحركة تمشيط واسعة حول مكة، وصادف وجودهم حلول موسم الحج، ومكة -كما يصفها دحلان- تعيش في ظل حصار خانق؛ إذ عمَّ الغلاء البلد، حتى بلغت قيمة الكيلة من القمح والأرز مشخصين، والرطل من السكر والشحم والزيت ريالين، كما انعدمت الأرزاق؛ فأكل الناس النوى، وبزر الخشخاش، والقطط، والكلاب[80].

أخذ الحصار السعودي يؤتي ثماره، عندما خلقت الأوضاع الأمنية والمعيشية المتردية قاعدة كبيرة من المعارضة الداخلية للشريف غالب من أهل الحجاز، ومن داخل أسرة الشريف نفسه، فانشقَّ عنه عدد من أفرادها مثل أبن أخيه محمد بن سرور، وعددٌ من أشراف ذوي بركات، وآخرون من الأشراف المناعمة، الذين استغلوا ضعف موقف غالب السياسي والعسكري للتخلص من حكمه؛ إمَّا كُرهًا له، أو طمعًا في منصب الشرافة. وفرَّ معظم العامة هربًا من مكة، حتى لا يكاد الصف الواحد من المصلين يكتمل في المسجد الحرام، كما تذكر بعض الروايات[81]. وغالبًا ما كان يفر هؤلاء إلى الجيش السعودي المتحصن في منطقة الحسينية بالقرب من مكة، ويُذكر أن الشريف غالبًا حاول إقناع أمير الحج الشامي إبراهيم باشا بمساعدته في قتال السعوديين، لكنه اعتذر خوفًا من نشوب حرب تهدد حياة الحجاج؛ فأرسل للسعوديين رغبته في الاستسلام، فأمهلوه ثلاثة أيام فقط للخروج منها، فخرج وسحب معه الحامية التركية التي كان سليمان باشا أمير الحج الشامي قد استبقاها هناك. ويدل هذا الانسحاب السريع على تردِّي الأوضاع الأمنية في الحجاز بصورة خطيرة.

دفع الحصار وظروفه الشريف غالبًا لطلب الاستسلام، خاصة بعد أن يئس من مساعدة العثمانيين؛ فاعترف في سبتمبر من عام 1220هـ/ 1806م بالسيادة السعودية على الحجاز، والتقيد بنشر الفكر السلفي، كشرطين أساسيين لابد من التقيد بهما إذا أراد البقاء في منصبه[82]. ويمثل اعترافه بالسيادة السعودية على الحجاز، وتطبيقها على أرض الواقع، نصرًا سياسيًّا عظيمًا للسعوديين؛ لأن غالبًا أزال بنفسه جميع القباب، وأغلق الحوانيت أثناء الصلاة، كما منع شرب التنباك، وأعطى المطاوعة -من أتباع السعوديين- صلاحيات مطلقة في تغيير ما شاؤوا[83]. ويذكر أحد هؤلاء في رسالة بعثها إلى صديقه في اليمن، أن الشريف رخَّص له في أن يغير بعصاه ما يريد دون أن يخشى أحدًا[84]. وفي رسالة بعثها للإمام سعود، أبدى غالب استعداده ليكون أحد أتباعه المخلصين، متمنِّيًا أن يعتبره ولدًا من أولاده، فيقول: "إنك جرَّبت عداوتي من قبلُ، فجرِّب الآن صداقتي... فإذا ظهر عجزي في تمشية الأمور، فإن ورقة منكم تؤخرني وتقدم سواي"[85]. غير أن الشريف غالبًا -من جانب آخر- أخذ يثبت نفوذه، فأبقى على جيشه، وقام بتحصين جدة، وصاهر عبد الوهاب أبا نقطة أهم قادة السعوديين؛ حتى يوازن قوته بقوة المضايفي في الحجاز[86]. واستمر على علاقته بالعثمانيين، ينقل ولاءه لهم، مؤمِّنًا لنفسه في كل الظروف مخرجًا[87].

أما بخصوص جدة؛ فتم الاتفاق بينه وبين الإمام سعود على منع الجيش السعودي من دخولها، باستثناء عدد يسير من كلا الطرفين. واستطاع غالب -بدهاء- انتزاع مزايا سيادية، عندما منحه السعوديون

سلطات واسعة مكَّنته من إعادة ترتيب أوضاعه الداخلية؛ فضمن لنفسه وللأتراك حرية التحرك والمراوغة بشكل كافٍ. ويذكر جحاف أن الشريف أرسل إلى أهل جدة قائلًا: "اسمعوا وأطيعوا ظاهرًا، واحذروا أن يظهر بخاناتكم آلات التنباك"؛ فدخلها وفد سعودي قُدِّر بعشرة أشخاص، فعاهدهم من بجدة، ثم خرجوا منها بعد أن اشترط عليهم الشريف غالب ألَّا يدخلَها بعد هذا اليوم نجديٌّ[88].

وينطبق الحال على الوضع في المدينة المنورة؛ فلا يوجد مسوِّغ للسعوديين بالإبقاء على حاكمها العثماني حسن قلجي في منصبه بعد استسلامه كرهًا عام 1218ه/ 1804م، سوى حرصهم على عدم إثارة العثمانيين، وطمأنة السكان والعالم الإسلامي بعدم حدوث أي تغيير من شأنه زعزعة أوضاع بلاد الحرمين. ويأتي ذلك تماشيًا مع معاملتهم الحسنة لأهالي المدينة، كما تذكر أكثر الروايات؛ إذ لم يُحدِثوا بها -كما يقول الجبرتي- غير منع المنكَرات والتدخين، وهدم القباب، ما عدا قبر النبي صلى الله عليه وسلم[89]. واللافت للنظر، أن السعوديين لم يُعيِّنوا أميرًا عليها، أو ممثلًا عنهم إلى جانب الحاكم التركي، ولم يتركوا ما يشير إلى نفوذهم السياسي هناك، سوى حامية عسكرية صغيرة[90] تحت قيادة ابن مضيان؛ شيخ قبيلة حرب. (وذلك قبل أن يُقيم الأمير سعود حامية عسكرية في القلعة من أهل نجد وعسير).

ثالثاً- الحجاز تحت السيطرة السعودية والموقف العثماني:

أ. الممارسات السعودية:

لم يتوانَ السعوديون برهةً -منذ دخولهم الحجاز- عن تحويله دينيًّا إلى الفكر الإصلاحي، شأنه في ذلك شأن جميع الأقاليم الأخرى التي دخلها الحكم السعودي؛ إذ أُزيلت القباب، وهُدمت الأضرحة، ومُنع التدخين وعُزِّر المدخنون، وحُرم استخدام آلات الموسيقى، وأُلزم الناس بصلاة الجماعة في المساجد، واستُبدل إمام المذهب الحنبلي بأئمة المسجد الحرام من المذاهب الأربعة، وفُرض تعلُّم كتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتدريسه في حلقة المسجد الحرام؛ ليحل محلَّ كثير من كتب الصوفية التي صودرت من الحجاز. ومُنع الرجال من حلق اللحى، وأطلق السعوديون يد رجال الحِسْبة في أنحاء الحجاز، فكانوا يُشرفون على مراقبة تنفيذ مبادئ الدعوة الإصلاحية بدقة وإحكام[91].

ولا يفوتنا أن نذكر أن تطبيق الفكر الإصلاحي، وما رافقه من انقطاع الحج، قد حرم الحجاز من أهم موارده المالية؛ حيث تضرَّر قطاع كبير من القائمين على الوظائف هناك؛ كالمطوفين، والسقاة، والمزورين، وتجار الماشية، الذين انقطع دخلهم بتوقف النذور والموالد، وذبح الأضاحي، وتأجير الماشية المستخدَمة وسائل نقل للحجيج، وتوقف حركة البيع والشراء المزدهرة، وحركة تأجير المنازل التي يُنعشها وفود الحجيج وزائرو قبور الصالحين من مختلف بقاع الأرض. ومما زاد الأوضاع الاقتصادية سوءًا، توقف جميع المساعدات العثمانية؛ من صدقات، وصُرَر ومخصَّصات مالية؛ مما أدى إلى انهيار شامل للوضع الاقتصادي، فترتب عليه انخفاض مستوى المعيشة، وهجرة أعداد كبيرة من السكان إلى الخارج، خاصة الشام ومصر؛ مما نجم عنه

اختلال في تركيبة السكان. وفي هذا الصدد يذكر الجبرتي أن انقطاع المعونات العثمانية لسكان الحجاز، دفعهم إلى الخروج من أوطانهم بأولادهم ونسائهم، ولم يمكث بها سوى من ليس له إيراد[92].

هذا بالإضافة إلى الضرر الجسيم الذي لحق بقبائل الحجاز القاطنة على طول الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة؛ إذ كان يُدفع لهم في السابق أموال طائلة مقابل حفظ الأمن، وتوفير الحماية لقوافل الحجيج، أما الآن؛ فإن الضرر الاقتصادي لم يقتصر على قطع هذه الرواتب فحسب، بل أُجبروا أيضًا على إخراج أموال الزكاة سنويًّا للحكومة[93]. وكان الضرر الأخير، إلى جانب ما أحدثه الشلل الاقتصادي العام، هو أكثر العوامل التي ساهمت في تقويض النفوذ السعودي في الحجاز، ودفعت زعماء القبائل وغيرهم –ممن لحقهم الضرر– إلى التعاون مع العثمانيين فيما بعد[94]. ولا مندوحة عن القول بأن الإصرار السعودي على تغيير المظهر الديني للحجاز، بتنفيذ الإصلاح قسرًا، دون مراعاة تركيبة السكان الدينية والاجتماعية، ولَّد نفورًا من الحكم السعودي، خاصة لدى سكان المدينة[95]؛ إذ ظلوا على صلة وثيقة بالحكومة العثمانية منذ بدأ الحصار، يراسلونها ويُطْلِعون السلطان العثماني على كل المستجدَّات، فتوالت شكاواهم إلى الباب العالي تُدين تسلُّط السعوديين عليهم[96]، فضلًا عن هجرة بعض أهلها إلى الشام[97].

ورغم كل الظروف، استطاع حكام الدرعية تحقيق "المعجزة" بضم الحجاز، وإنشاء دولة موحدة ذات سيادة سياسية ودينية مرموقة، تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربي، وأصبح الإمام السعودي رسميًّا هو خادم الحرمين الشريفين، وهو شرفٌ استحقه السعوديون عن جدارة. ولكن ثمة تساؤلات تطرح نفسها بقوة بعد انتصار السعوديين وضم الحجاز، بعضها يتعلق بالسعوديين ومقدرتهم على الاحتفاظ بمكتسباتهم السياسية والحربية، دون الإضرار بالنفوذ العثماني على الحجاز، وما إذا كانوا مستعدين للتنازل عن بعض مبادئ دعوتهم الإصلاحية؛ تفاديًا للصدام مع العثمانيين. وبالقدر ذاته، هناك أسئلة تتعلق بسلوك أنصار الدعوة الإصلاحية من القبائل، ومدى مرونتهم وتقبُّلهم أن تعامل الحجاز بصورة مختلفة عن بقية المناطق التي ضموها تحت سيادتهم. وموقف العثمانيين من الممارسات السعودية، وهل كان بالإمكان الاستسلام للأمر الواقع الذي لا طائل لهم بمقاومته عسكريًّا؟

الواقع إن رضوخ العثمانيين للتحدي السعودي والقبول به، لم يكن بالأمر المستبعَد، كما حدث لكثير ممن حملوا السلاح ضدها، خاصة بعد أن أبدى ولاتها في المنطقة عجزًا وتقاعسًا عن مواجهتهم عسكريا. وكان بالإمكان إحلال السعوديين محل الأشراف في حكم الحجاز بيسر وسلاسة لو أن السعوديين كانوا أكثر مرونة في التعامل مع قضيتين سياديتين، هما كل ما تبقى للعثمانيين من نفوذ في الحجاز، وكانتا من الأهمية بمكان؛ حيث لم تترك للسلطان العثماني خيارًا آخر سوى قتال السعوديين والدفاع عن سمعة دولته:

القضية الأولى: هي قطع الدعاء للسلطان العثماني في خطبة الجمعة في الحرمين الشريفين، وكل ما يترتب على ذلك من نفوذ ديني واسمي؛ كرفض استقبال كسوة الكعبة، واستقبال القاضي الحنفي. فكان قطع الدعاء بمثابة إنهاء للسيادة الدينية للسلطان العثماني على العالم الإسلامي؛ إذ كانت الخطبة باسم السلطان،

والدعاء له، هو مصدر فخره واعتزازه. وكان مضمون هذا الدعاء يجعل السلطان العثماني يشعر وكأنه خليفة المسلمين. فإلغاؤه يوصد كل المنافذ التي قد يحتال من خلالها للتوصل إلى حلٍّ مُرضٍ مع السعوديين. وعلى الرغم من أن إلغاء الخطبة لا يعد إلغاء لحكم العثمانيين؛ لأن السعوديين أنفسهم لم يذكروا اسم إمامهم في الخطبة، باعتبارها بدعةً لم تُنقَل عن السلف[98]، فإن الإمام سعودًا حاول الإمساك بالعصا من المنتصف إرضاءً لكل الأطراف. إذ يورد جحاف نصًّا بهذا الصدد، فيقول: إن الإمام سعودًا طلب من خطيب المسجد الحرام "ألا يذكر في خطبته أحدًا، فراجعه الخطيب وسأله عن السلطان، فأجاب إذا وصلت إلى ذكره، فقل: وأيِّد اللهم السلطان وأَعمِر مقامَه بالعدل والصلاح، ولا تزد على هذا"[99]. ويفهم من ذلك أن الإمام سعودًا لم يكن في نيته تصعيد الموقف مع العثمانيين في هذه الفترة المبكرة، لكن قطع الخطبة عن السلطان من المنظور العثماني يعتبر تعديًّا صريحًا على سلطته في الحجاز وسببًا مباشرًا في القطيعة مع الحكام الجدد، وهو ما لم يدركه السعوديون على ما يبدو. ومن هنا نرجح ما ذكره لوريمر عن تحمِّل الشريف غالب مسؤولية هذا التصعيد، وانسداد الأفق السياسي بين الجانبين؛ لدوره في إقناع الإمام سعود بالتشدد مع العثمانيين، سواء بقطع الخطبة أو غيرها من الممارسات [100].

القضية الثانية: هي الموقف من قوافل الحج القادمة من مصر والشام، التي عادة ما تسير في موكب عظيم، برفقة المحمل؛ وهو عبارة عن هودج على ظهر جمل مزيَّن بزينة فاخرة، ويُحمَل في داخله كسوة الكعبة، ونُسَخٌ من القرآن، ونفائس من الأحجار الكريمة. وعادة ما تكون هذه القوافل محمَّلة بالصرة والصدقات. ويسير معها عازفو الطبول على طول الطريق المؤدي إلى الحرمين الشريفين، بحيث تعبِّر تلك الأُبَّهة عن عظمة السلطان العثماني، وترمز إلى هيبة دولته.

والمتتبع للموضوع يلاحظ أن أول تحدٍّ سعودي للقوافل العثمانية حدث في عام 1219هـ/1803م، مع بداية الحصار السعودي لمكة، وفقا لما ذكره دي كورانسيه وفاسلييف عن حادثة المحملين –الشامي والمصري– القادمين إلى الأراضي المقدسة، وكيف أُجبرا على دفع رسوم مالية عن كل حاج، بلغت ثمانية قروش، فيما كان على الحجاج الأتراك أن يدفعوا ضعف هذا المبلغ[101]. ثم تضاعفت الرسوم، لتصل إلى عشر بيزات عن كل حاج، ومثلها عن كل دابة، وسبع بيزات عن كل قنطار من الأحمال، ومائة كيس عن مرور القافلة بأكملها. وإن صحت الرواية فيبدو ذلك التحدي مفهومًا إذا ما وضع في سياق محاولات السعوديين إحكام سيطرتهم على الحجاز، لأن رفع الرسوم سيؤدي إلى تخفيض أعداد الحجاج الوافدين إلى المشاعر المقدسة، وهذا سيضمن عدم اندساس المناوئين لهم بين الحجيج، لاسيما أن تخادم قوات الحج الشامية مع شريف مكة كانت تجري على قدم وساق.

وكان حج عام 1220هـ/1806م فارقًا في العلاقات العثمانية السعودية؛ وذلك بإصدار السعوديين قرارًا يقضي بتوليهم حماية قوافل الحج ابتداء من هذه السنة، عن طريق إرسال سريَّة إلى مزيريب في جنوب

سوريا؛ لترافق قافلة الحج الشامية. وبناءً عليه؛ لم يعد هناك ضرورة لأمير الحج، أو الجيش العثماني المصاحب لهم[102]. وتأكيدًا لفرض سيادتهم الكاملة، أعلن السعوديون أنه لن يُسمح للقوافل العثمانية من الآن فصاعدًا بدخول الحجاز، إذا لم تحترم قدسية الحج وتتقيد بالتعاليم السعودية المفروضة[103]. فاعتبر العثمانيون هذا الإعلانَ إهانة بالغة لهم، وتقويضًا صارخًا لنفوذهم السياسي والديني في المنطقة. وبلغ التحدي السعودي ذروتَه بإرسال الإمام سعود –قُبيل موسم الحج– إنذارًا إلى والي دمشق وحلب، وكانا يستعدان لقيادة قافلة الحج، بضرورة الالتزام بالمبادئ الدينية، وإلغاء كل مظاهر الزينة المصاحبة للمحمل العثماني، التي –من وجهة نظر السعوديين– تعدُّ خارجة عن قدسية الحج. ويُذكر أن الإمام سعودًا عندما دخل مكة أرسل إلى السلطان العثماني سليم كتابًا، يطلب منه بلهجة جافَّة منعَ والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى البلد المقدس[104].

وتضاربت الأقوال حول تقيد القوافل بالإنذار السعودي؛ فتذكر بعض الروايات أن العثمانيين تقيدوا بالطلب السعودي، وخرجت قافلتهم الشامية من غير محمل أو آلات موسيقية، أو سلاح[105]. فيما وردت روايات أخرى تضمنت عدم تقيد العثمانيين بالأوامر السعودية؛ لذلك مُنعت القافلة من دخول المدينة، رغم استعداد قائدها دفع مليون بيزة[106]. فاضطر عبد الله باشا إلى العودة إلى الشام، وفي طريقه إلى هناك، تعرضت قافلته إلى كارثة إنسانية. أما قافلة الحج المصرية، فبحسب رواية دحلان، وفدت إلى الأماكن المقدسة دون أن تأخذ إذنًا مسبقًا بالحج، فأُحرقت عند أبواب مكة[107].

ويعتبر بوركهارت أن الموقف السعودي المتشدد من القوافل العثمانية اتُّخذ على أساس ديني بحت؛ لأن حجاج هذه القوافل كانوا دائمًا ما يتصرفون –على حد قوله– "بطريقة مشينة جدًّا، ويرتكبون أسوأ الرذائل علنًا"[108]؛ فتتأذى مشاعر السعوديين من أعمال البِدَع والخرافات التي يقوم بها كثير من الحجاج[109]. رغم أن ابن بشر يعزو قرار المنع إلى خوف السعوديين من تآمر أمراء القوافل مع الشريف غالب، فيذكر أن الإمام سعودًا طلب من أمرائه، ممن سبقوه إلى الأماكن المقدسة، في موسم حج عام 1221هـ/1807مـ منع دخول قوافل الشام وإسطنبول ونواحيهما إلى الحجاز[110].ويرى الجبرتي أن السعوديين لم يمنعوا أحدًا من الحج على الطريقة المشروعة، ولم يمنعوا إلا المحمل، والطبل، والزمر، والأسلحة[111]. ولعل هذين السببين هما أكثر الأسباب منطقية لمنع القوافل العثمانية من الدخول للأراضي المقدسة، إلى جانب امتناع القوافل الأخرى من تلقاء نفسها نظرًا لحالة الرعب التي تملكت قادتها من المخاطرة بالسفر عبر المناطق التي يسيطر عليها السعوديون[112]. ونستخلص من تلك الأقوال، أن السعوديين كانوا قد تعمدوا التضييق على قوافل الحج لأسباب دينية وأمنية وسياسية؛ مما جعل قادة وقوات هذه القوافل تمتنع عن السفر إلى الحجاز إما خوفًا أو تعنتًا.

ومهما يكن الأمر، فقد وضع هذا الاستحقاق السعودي الحكومة العثمانية أمام أكثر من مأزق؛ فمن جهة أنها لا تستطيع توفير الأمن لقوافل الحجيج الوافدة إلى الحجاز. ومن جهة أخرى، لا تريد أن توكل

للسعوديين هذه المهمة؛ لأن حماية هذه القوافل يعني اعترافًا بالسيادة السعودية على الحجاز، وبالإمام سعود خادمًا للحرمين وإمامًا للمسلمين[113]، وهو الأمر الذي لا يمكن القبول به من جانب العثمانيين. ولكي يُخرجوا أنفسهم من هذا الحرج، أوقفوا منذ ذلك العام إرسال قوافل الحج من الشام ومصر وإسطنبول؛ من أجل أن يحرموا السعوديين هذا الشرف الديني الرفيع، وليحرموهم كذلك العوائد المالية الضخمة الناجمة عن مرور قوافل الحج. والأهم من ذلك كله، هو إثارة الرأي العام الإسلامي ضد السعوديين لتوقف الحج.

ب. الموقف العثماني:

أحدَثَ سلب السعوديين لجميع أشكال النفوذ العثماني في الحجاز صدمة معنوية هائلة للحكومة العثمانية؛ مما دفعها إلى حشد كل طاقاتها لاسترداد سلطتها المفقودة؛ فشنوا حملة دعائية قوية ضد السعوديين، ركزت على تشويه صورتهم أمام الرأي العام الإسلامي؛ بتغيير مسمى "الوهابيين" الذي كان يُطلق على السعوديين سابقًا، بكلمة "الخوارج"، وعُمم الاسم الجديد في كل خطاباتهم الرسمية، منذ عام 1223هـ/ 1809م. كما احتضنوا جموع الفارّين من الحجاز[114]، وضخَّموا -بشكل متعمَّد- مآخذ هؤلاء على الحكم السعودي، وبالَغوا في تصوير معاناتهم، وشنَّعوا عليهم أخذَهم أموال الحجرة النبوية من المسجد النبوي، واعتبروا ذلك منكرًا وتطاولًا على حُرمة النبي صلى الله عليه وسلم[115]. وأرسلوا رسائل عدة إلى أهالي الحجاز، توصيهم بعدم التقيد بأوامر السعوديين، وتُطلعهم على التحضيرات العسكرية المتَّخَذة بهذا الشأن[116]. واستغل العثمانيون -بذكاء- إصرار السعوديين على تطبيق الفكر الإصلاحي على قوافل الحج، فامتنعوا عن إرسالها؛ حتى يظهر الأمر وكأن السعوديين هم المتسببون فيه، مما أثار هياجًا بين المسلمين، فتعالت صيحاتهم مطالبين باتخاذ اللازم لتخليص الأماكن المقدسة من الحكم السعودي[117].

أمَّا عسكريًّا؛ فتوالت مطالبهم على واليهم الجديد على مصر، محمد علي باشا (1220-1265هـ\1807-1849م)؛ لإقناعه باستعادة سيادتهم على الحجاز، واستخلاصه من قبضة السعوديين؛ فتعاقبت عليه الرسائل السلطانية تتملَّقه، وتَعِده بأن طموحه في تثبيت سلطته ورضاهم عنه لن يتحقق إلا بعد استرجاع الحجاز، والقضاء على الدولة السعودية، مع علمهم التام بجسامة تلك الخطوة. صحيح أن الوضع شهد في مراحله السابقة تحالفات مع ولاة العراق والشام، وحروبًا بالوكالة، لكن ما يحدث من تحالف إستراتيجي مع قائد كمحمد علي يبدو مختلفًا تمامًا من حيث خطورته، وحجمه، ونتائجه المحتملة. وعليه؛ التقت مصالح الطرفين، وإلا ما الذي يمكن أن يُقنع الوالي الجديد بخوض غمار حروب مكلِّفة في صحراء الجزيرة لمصلحة العثمانيين، إذا لم يضمن من ورائها بناء مجد لدولته، يجعله ندًّا للسلطان العثماني، وليس مجرد والٍ كغيره من الولاة العثمانيين؟! ومن هذا المنطلق تلقَّى الباب العالي في عام 1221هـ/ 1808م قبول مصر واستعدادها لهذه المهمة، على أن يتكفل العثمانيون بتمويل جزء كبير منها[118]. وبعد مرور ما يقرب من أربع سنوات كُرست للإعداد لهذه المهمة، انطلقت حملة عسكرية عام 1226هـ\1811م بقيادة

ابنه طوسون من ميناء القُصير متوجهة إلى ينبع، وطوال أربع سنوات أخرى من العمليات الحربية، تم استخلاص الحجاز نهائيًا من السعوديين، بعد أن أخذت مدنه تتساقط الواحدة تلو الأخرى بمجهود حربي ضخم من القوات المصرية، وبتواطؤ من الشريف غالب، ومساعدة قطاع كبير من السكان وزعماء القبائل[119].

وتشير المصادر إلى أن محمد علي باشر منذ قدومه إلى الحجاز إحكام قبضته السياسية على الإقليم بسلسة من الإجراءات الإدارية سلبت الحجاز استقلاله الذي تمتع به على مدار ثلاثة قرون، وكان في مقدمتها القبض على الشريف غالب وعزله من منصبه ونفيه مع أفراد أسرته إلى سالونيك؛ بحجة عدم وقوفه بحزم ضد (الوهابيين)، كما ورد في الفرمان السلطاني المرسل إلى شريف مكة الجديد يحيى بن سرور[120]، الذي تم تعيينه من قِبل محمد علي شخصيًا، في سابقة خطيرة في تاريخ حكام الحجاز. فبعزل الشريف غالب وتعيين آخر مكانَه، يكون الأشراف قد حُرموا من أحقيَّتهم في حكم الحجاز حكمًا مباشرًا، فأصبح الواحد منهم مجرد موظفٍ عثماني يُعيَّن من قِبل حكومة مصر، ويُصرَف له راتب شهري شأنه شأن زعماء القبائل وموظفي الحكومة[121]. في حين كانت إدارة البلاد الفعلية بيد رجال محمد علي وخاصته، أما العثمانيون فصدقت توقعاتهم السابقة؛ إذ تضاءل نفوذهم هناك أمام نفوذ وسلطة محمد علي، ورغم ذلك، اعتبروا ما تحقق نصرًا معنويًّا لهم؛ لأن هذه السلطة الجديدة كفلت لهم سيادتهم الاسمية على الحجاز، وأعادت اسم السلطان العثماني مرة أخرى زعيمًا وخليفة للمسلمين. وأما هيبة الدولة، فبقيت مرهونة بالقضاء على الدولة السعودية قضاءً تامًّا؛ لذلك ما إن انتهت الحملة من مهمتها في الحجاز، حتى قاد والي مصر حملة أخرى بنفسه لتتبع السعوديين في الجزيرة العربية، ثم تلا ذلك حملة أخرى في عام 1233هـ/ 1818م بقيادة ابنه إبراهيم؛ لحصار الدرعية عاصمة السعوديين.

ورغم استماتة السعوديين وفئات عديدة من سكان نجد في الدفاع عن دولتهم، فإن اختلاف موازين القوى إلى جانب عوامل عدة، لا مجال للحديث عنها الآن، أجبرت الأمير عبد الله بن سعود -الذي خلف والده في الحكم- على تسليم نفسه، مع عدد من أفراد أسرته وأسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ممن تبقى منهم على قيد الحياة لإبراهيم، وتقدر وثيقة عثمانية ضمت قائمة بالمنفيين عددهم نحو أكثر من مائتين وخمسين[122]. وتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم في ساحة القديسة صوفيا، في عملية مسرحية لإظهار قوة الدولة العثمانية، جزاء تطاولهم وتحديهم لها، دون أي اعتبار لحالة الفوضى والانقسامات السياسية التي ستظهر في نجد عقب سقوط الدولة السعودية، والتي من المرجح أن تعيد المنطقة إلى سابق عهدها؛ من التفكك والتمزق في دويلات فاشلة، لا تمتلك مقومات الدولة والمجتمع.

ورغم نجاح والي مصر في استعادة هيبة الدولة العثمانية، وإزالة ما لحق بها من مهانة، باسترجاع إقليم الحجاز، فإن ذلك وحده لم يَشفِ غليل العثمانيين؛ لذلك صدرت أوامر السلطان العثماني بملاحقة السعوديين في نجد، وتدمير دولتهم، واقتحام عاصمتهم الدرعية. ولكن حدث ما كان يخشاه العثمانيون؛ إذ

عزَّز نجاح محمد علي في شبه الجزيرة من مركزه في مصر أكثر من السابق، حتى أصبح هاجسًا مقلقًا للعثمانيين أكثر من السعوديين أنفسهم، لا سيما مع بسط سلطانه على أجزاء واسعة في الجزيرة العربية والشام والأناضول؛ بل يمكن القول إن فكرة استقلاله عن العثمانيين، وتكوين إمبراطوريته، بدأت تتبلور بعد ذلك النجاح. ومما هو جدير بالإشارة أيضًا، أنه كما خسر السعوديون الحجاز وأُزيلت دولتهم، فإن الشريف غالبًا فَقَدَ هو الآخر منصبه في الحجاز ليموت في منفاه.

الخاتمة:

شكَّل ظهور الدولة السعودية حدثًا بارزًا وتجربة فريدة، ليس في نجد فحسب، وإنما في معظم أنحاء الجزيرة العربية؛ وارتكزت هذه التجربة على التواصل والتزاوج بين السياسة والدين، ووظفت –بشكل مدهش– القوى القبلية التي استُخدمت لبلوغ هذا الهدف، فتشكَّلت بذلك قوة عسكرية ضاربة استطاعت أن تسطِّر انتصارات على كامل تراب شبه الجزيرة العربية، ومثَّل ضمُّ الحجاز قمة هذه الانتصارات، وشكَّل حدثًا فريدًا؛ فلأول مرة يصبح إقليم الحجاز خاضعًا سياسيًّا للحاكم المقيم في نجد، بينما يكون حاكم الحجاز تابعًا له ومنفذًا لأوامره. أما دينيًّا فقد عمل السعوديون –منذ دخولهم الحجاز– على تحويله دينيًّا إلى الفكر الإصلاحي، شأنه في ذلك شأن جميع الأقاليم الأخرى التي دخلها الحكم السعودي؛ فقد أزيلت القباب، وهُدمت الأضرحة، واستبدل أئمة المسجد الحرام من ذوي المذاهب الأربعة، بإمام واحد على المذهب الحنبلي، وأصبح المذهب الحنبلي –ولأول مرة– هو المذهب الرسمي في الحجاز. غير أن تطبيق الفكر الإصلاحي، وما رافقه من انقطاع الحج، حرم الحجاز من أهم موارده المالية، فتضرَّر قطاع كبير من القائمين على الوظائف الدينية، وتوقفت حركة البيع والشراء المزدهرة، وحركة تأجير المنازل، التي ينعشها وفود الحجيج، وزائرو قبور الصالحين. ومما زاد الأوضاعَ الاقتصادية سوءًا توقفُ جميع المساعدات العثمانية؛ من صدقات، وصرر، ومخصصات مالية، مما أدى إلى انهيار شامل للوضع الاقتصادي، ترتب عليه انخفاض مستوى المعيشة وهجرة أعداد كبيرة من السكان إلى الخارج، خاصة إلى الشام ومصر. إضافة إلى الضرر الجسيم الذي لحق بقبائل الحجاز، القاطنة على طول الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة.

وتكمن الأسباب خلف نجاح السعوديين في ضم الحجاز في توتر العلاقات بين السلطة العثمانية وولاتها في المنطقة، وإدراكهم مغزى المواجهات مع السعوديين، وأن المقصود بها استنزافهم عسكريًّا وسياسيًّا، وهذا ما جعل أشراف مكة وولاة العراق –شبه المستقلين– يتقاعسون عن مواجهة السعوديين. كما استهان أشراف الحجاز بقوة السعوديين منذ بداية المواجهة؛ مما ساهم في اتساع رقعة الدولة السعودية وازدياد مناصريها.

إن عجز ولاة العراق عن القضاء على السعوديين، واشتراطهم عقد تحالف إقليمي مكون من جيوش العراق والشام ومصر لاستئناف الحرب، أرغم العثمانيين على تقبل فكرة التقارب مع السعوديين وعقد هدنة معهم عام 1213هـ/ 1798م، مما أثار مخاوف الشريف غالب من نية العثمانيين بالتضحية بحكم الأشراف

على الحجاز واستبدالهم بالحكم السعودي في مقابل الإبقاء على سلطتهم الاسمية، خاصة وأن علاقتهم بأشراف الحجاز لم تكن على وفاق تام، ولطالما تحينوا الفرصة للتخلص من سيطرتهم. وهذا مما زاد من ريبة الشريف غالب في نية العثمانيين، فغيَّر إستراتيجيته المستهترة مع السعوديين، وخاض ما يربو على الخمسين معركة ضدهم، مما تسبب في إرهاق جيشه، ومن ثم قلل من فرصه في الاحتفاظ بالحجاز.

تسبب ضم السعوديين للحجاز، وسلب كافة أشكال نفوذ العثمانيين هناك، في إحداث صدمة معنوية هائلة، مما دفعهم إلى حشد كل طاقاتهم لاسترداده، بدءًا باستخدام سلاح الدعاية على نطاق واسع لتشويه عقيدة السعوديين وممارساتهم، وتضخيم أخطائهم. كما احتضنوا جموع الفارّين من الحجاز، وأرسلوا رسائل عدة إلى الأهالي، توصيهم بعدم التقيد بأوامر السعوديين، وتُطلعهم على التحضيرات العسكرية المتَّخَذة بهذا الشأن. واستغلوا –بذكاء– إصرار السعوديين على تطبيق الفكر الإصلاحي على قوافل الحج، فامتنعوا عن إرسالها؛ حتى يظهر الأمر وكأن السعوديين هم المتسببون فيه، مما أثار هياجًا بين المسلمين، فتعالت صيحاتهم مطالبين باتخاذ اللازم لتخليص الأماكن المقدسة من حكمهم، وفرضوا حصارًا اقتصاديًّا قاسيًا على الحجاز؛ فأحدثوا كسادًا تجاريًّا تسبب في هجرة أعداد من سكان الحجاز إلى الشام وتركيا ممن لم يتحملوا الأوضاع الاقتصادية والدينية الجديدة. أما عسكريًّا فتم حشد كل طاقاتهم العسكرية، لاسترداد هذا النفوذ، فاستعانوا بألدِّ منافسيهم –وهو والي مصر– وهم يعلمون أنه لا يقل في الخطورة عن السعوديين، ثم لم يكتف العثمانيون باسترجاع الحجاز، بل حرصوا على استعادة هيبتهم المفقودة عبر القضاء نهائيًّا على الدولة السعودية؛ بإعدام قادتهم، وهدم عاصمتهم، وذلك دون النظر إلى عواقب هذا القرار وتداعياته على المنطقة.

ويتحمل السعوديون دورًا في الوصول إلى تلك النتيجة الكارثية بسبب بعض التقديرات الخاطئة؛ إذ لم يُقدِّر السعوديون مدى حرص العثمانيين على الاحتفاظ بالحجاز، والاهتمام بالنواحي الدينية كنوع من التعويض عن حالة الضعف السائدة، كما لم يُقدِّروا الفترة "القاتلة" التي تمرُّ بها الدولة العثمانية، وهي الفترة التي كانت الدولة خلالها تحدِّث أنظمتها العسكرية والإدارية والاقتصادية، وخاصة في مصر. ولم يُقدِّر السعوديون وضع الحجاز السياسي والديني والعسكري؛ وأن الاحتفاظ به يتطلب مواجهات تختلف عن بقية المواجهات السابقة التي خاضوها مع القبائل والكيانات في داخل الجزيرة العربية وأطراف العراق والشام، التي واجهتهم بأساليب عسكرية مماثلة. إن قدرة السعوديين العسكرية، وطموحهم السياسي في توحيد شبه الجزيرة العربية ضمن كيان سياسي واحد؛ وحماسهم الشديد لعقيدتهم، واندفاعهم لنشرها وإزالة كل ما يمسها من مظاهر الشرك والبدع، أفقدهم المرونة في التعامل مع أوضاع الحجاز؛ مما ولَّد نفورًا عامًّا بين سكانه، وأرغم بعض مشايخ القبائل ممن تضرروا اقتصاديًّا للتعاون مع العثمانيين فيما بعد.

إن افتقار السعوديين إلى قدر من المرونة السياسية في تعاملهم مع السلطة العثمانية، واندفاعهم نحو تأكيد هويتهم السياسة الكاملة، جعل العثمانيين يستنفرون كل جهودهم لاستعادة الحجاز، والقضاء على

الدولة السعودية مهما ارتفعت كلفة ثمن هذه المغامرة. فتشتت قوة السعوديين العسكرية، وتم استنزافها في جبهات مختلفة واتجاهات عديدة. هذا فضلًا عن أن وفاة قائد السعوديين الإمام سعود بن عبد العزيز –ذي العبقرية العسكرية، والحيوية المدهشة، والشجاعة الخارقة– في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إليه، كانت سببًا مباشرًا في توقف التحدي السعودي المناهض للنفوذ العثماني في الحجاز والجزيرة العربية؛ لكن هذا التوقف كان مؤقتًا؛ لأن زخم تجربة التحدي السعودي للعثمانيين في أهم ممالكهم، وقلبهم الأوضاع في المنطقة، وطرح فكر سياسي جديد يقوم على إنهاء تبعية الحجاز والمنطقة للحكم العثماني، والمراهنة على قدرة سكان المنطقة على إنشاء وحدة سياسية مستقلة، كل هذا غيَّر كثيرًا من المعادلات، وفرض واقعًا جديدًا يصعب القفز عليه.

حواشي البحث:

•أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

(1) ابن غنام، حسن، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، ج3، ط4، بيروت والقاهرة، دار الشروق، 1415هـ/1994م، ص46- 49.

(2) الخضيري، محمد، العلاقات بين الدولة السعودية الأولى وولاة العراق في العهد العثماني، ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة، 1401ه/1981م، ص64- 65.

(3) قورشون، زكريا، العثمانيون وآل سعود (1745- 1914م)، ط1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1425هـ/2005م، ص46.

(4) ابن فهد، جار الله، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكة المكرمة، مؤسسة الفرقان، 1420ه/2000م، ص280- 283.

(5) Abir, M., "The Arab Rebellion of Amir Ghalib of Mecca 1788-1813", Middle Eastern Studies, 7, (1971- 2), 185.

(6) Ibid, 185.

(7) Ibid, 186.

(8) العثيمين، عبد الله، تاريخ المملكة العربية السعودية، ج1، الرياض، 1404ه/1984م، ص37.

(9) ABIR, "Arab Rebellion", 185.

(10) ديدييه، شارل، رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ترجمة محمد خير البقاعي، دار الفيصل الثقافية، 1422ه/2001، ص26.

(11) ديدييه، شارل، رحلة إلى الحجاز، ص26.

(12) الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417ه/1997م، ص23.

(13) ديدييه، شارل، رحلة إلى الحجاز، ص23.

(14) أمين، سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج1، الرياض، مطابع الهلال، د.ت، ص136.

(15) البكتاشية: إحدى الطرق الصوفية الشيعية التي انتشرت في منطقة الأناضول، وتنسب إلى خنكار الحاج محمد بكتاش الخرساني الذي ولد سنة 1284 ونسب نفسه إلى الإمام موسى الكاظم، وأسس خنكار أول تكية للطريقة ثم انتشرت بعد ذلك بين الانكشارية وتعاطف معها بعض السلاطين. عباس، باسم حمزة، التطور التاريخي للطريقة البكتاشية منذ القرن الرابع عشر الميلادي وحتى الوقت الحاضر، العدد 24، 2018. https://www.iasj.net/iasj/pdf/87c384e5508ceee0.

(16) المولوية: تنسب إلى جمال الدين الرومي، وهي أشهر الطرق الصوفية السنية التي نشأت في مدينة قونية عاصمة الدولة السلجوقية في القرن الثالث عشر الميلادي. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة. https://shamela.ws/book/433/423.

(17) جمعة، لطفي، "محمد علي ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب"، دارة الملك عبد العزيز، ع4، الرياض، (1982)، ص47.

(18) جارشلي، إسماعيل، أشراف مكة المكرمة وأمرائها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، ط1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1424ه/2003م، ص179.

(19) جارشلي، أشراف مكة المكرمة، ص179.

(20) دحلان، أحمد، خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، مصر، المطبعة الخيرية، د.ت، ص277.

(21) آل زلفة، محمد، "الدولة السعودية في عهد الإمام سعود الكبير، العاصمة والحكومة والسكان، كما وردت في تقارير جوزيف روسو القنصل الفرنسي في حلب"، الدرعية، ع1، الرياض، (1- 1998م)، ص155.

(22) ابن غنام، تاريخ نجد، 131/3- 133.

(23) ابن عبد الشكور، عبد الله، تاريخ الأشراف الذين ملكوا الحرمين الشريفين، مخطوطة مصورة عن جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، 1974، ص331.

(24) ابن غنام، تاريخ نجد، 120/3.

(25) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، مراجعة رسائل ومسائل علماء نجد الإعلام من عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عصرنا هذا ج٩، جمعها: النجدي، عبد الرحمن بن محمد، ط،5، 1995م، ص 264-289.

(26) سنوك، هورخورنيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة علي عودة، ط1، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، 1419ه/1999م، ص259.

(27) سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ص259.

(28) سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ص259.

(29) انظر تعليق دحلان الساخر على المناظرات الدينية، ومحاولات علماء نجد إقناع علماء الحجاز بصحة معتقداتهم دحلان، خلاصة، ص 299-300-3001. أيضا" وصف دحلان لأتباع الدعوة بالخراف. ص308

(30) فاسلييف، تاريخ العربية السعودية، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة، موسكو، دار التقدم، 1406ه/1986م، ص136.

(31) آل زلفة، الدولة السعودية في عهد الإمام سعود الكبير، ص155.

(32) البطريق، عبد الحميد، إبراهيم باشا في بلاد العرب: ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا 1848- 1948م، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1418ه/1998م، ص4.

(33) ريمون، جان، التذكرة في أصل الوهابيين ودولتهم، ترجمة محمد البقاعي، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، 1424هـ/2003م، ص58.

(34) ابن غنام، تاريخ نجد، 80/3- 81.

(35) ابن غنام، تاريخ نجد، 144/3- 145.

(36) ابن بشر، عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، الرياض، ج2، مكتبة الرياض الحديثة، (د.ت)، ص127.

(37) مؤلف مجهول، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، دار الثقافة، (د.ت)، ص95.

(38) العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، 127/1.

(39) لمع الشهاب، ص96.

(40) لمع الشهاب، ص96.

(41) ابن بشر، عنوان المجد، 243/2.

(42) دحلان، خلاصة الكلام، ص216.

(43) دحلان، خلاصة الكلام، ص286- 287.

(44) دحلان، خلاصة الكلام، ص269.

(45) ابن غنام، تاريخ نجد 174/3.

(46) الصقري، صالح، العلاقات السياسية لأشراف مكة بنجد في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي في الفترة من 1205ه- 1790م وحتى 1235ه- 1819م، ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، 1979م، ص42.

(47) الكركوكلي، رسول، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، بيروت، دار الكتاب العربي، بغداد، مكتبة النهضة، د.ت، ص208.

(48) دارة الملك عبد العزيز، مجموعة وثائق شريف مكة، (وثيقة 2/2ك-3).

(49) البستاني، مهدي، حكم المماليك في بغداد ونهايته بتولية علي رضا باشا (1749- 1842م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، إستانبول، (1979م)، ص9.

(50) البستاني، حكم المماليك، ص9.

(51) قورشون، العثمانيون وآل سعود، ص72- 73.

(52) سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ص263.

(53) دحلان، خلاصة الكلام، ص216.

(54) لمزيد من التفاصيل حول انضمام المضايفي إلى السعوديين، انظر: ابن بشر، عنوان المجد، 122/2.

(55) عبد الشكور، تاريخ الأشراف، ص377.

(56) جحاف، لطف الله، درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعلام دولته الميامين ١٧٧٥- ١٨٠٩م، تحقيق إبراهيم المقحفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1425ه/2004م، ص421.

(57) جحاف، درر نحور الحور العين، ص427.

(58) دحلان، خلاصة الكلام، ص167.

(59) قورشون، العثمانيون وآل سعود، ص71.

(60) دارة الملك عبد العزيز، مجموعة وثائق شريف مكة، (وثيقة رقم: 1/4-14).

(61) دو كورانسييه، لويس، الوهابيون تاريخ ما أهمله التاريخ، ترجمة مجموعة من الباحثين، بيروت، رياض الريس، 1424ه/2003م، ص86.

(62) ريمون، التذكرة، ص7.

(63) ريمون، التذكرة، ص79.

(64) دحلان، خلاصة الكلام، ص167.

(65) ابن عبد الشكور، تاريخ الأشراف، ص425.

(66) ابن بشر، عنوان المجد، 123/2.

(67) ابن عبد الشكور، تاريخ الأشراف، ص245- 247.

(68) ابن بشر، عنوان المجد، 123/2.

(69) ابن عبد الشكور، تاريخ الأشراف، ص280.

(70) بوركهارت، جوهتن، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبد العزيز الهلابي وعبد الرحمن الشيخ، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413ه/1992م، ص93.

(71) دارة الملك عبد العزيز، مجموعة وثائق شريف مكة، (وثيقة رقم: 2/1-5).

(72) دو كورنسييه، الوهابيون، ص93.

(73) مرسي، أحمد، "شريف مكة بين قوتين"، دارة الملك عبد العزيز، ع1، الرياض، (2- 1975م)، ص174- 175.

(74) دو كورنسييه، الوهابيون، ص88.

(75) فاسلييف، تاريخ العربية السعودية، ص407.

(76) ابن عبد الشكور، تاريخ الأشراف، ص440.

(77) لوريمر، ج. ج، تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج، جمع محمد الخضيري، ط1، بريطانيا، دار غارنت للنشر، 1422ه/2001م، ص78- 97.

(78) لمزيد من التفاصيل عن الأمير ابن شكبان، انظر: العطني، سليمان بن محمد، بيشة في عهد الدولة السعودية الأولى غرب وجتوب غربي البلاد (1798-1817م) (دراسة تحليلية)، الموقع الإلكتروني: https://journals.iu.edu.sa/ESS/Main/Article/3416.

(79) أحد أبرز القادة السعوديين، استطاع إخضاع القبائل المجاورة، إذ دخل صبيا وافتتح ضمد، وكان له دور كبير في إخضاع الحجاز وجازان تحت الحكم السعودي، قاد غزوات عديدة ضد خصوم الدولة السعودية، وقتل في معركة مع الشريف حمود أبي مسمار عام 1809م. موسوعة مقاتل من الصحراء، الموقع الإلكتروني: https://www.moqatel.com/openshare/Mostlhat/Alaam/Mokatel17_1-23.htm_cvt.htm.

(80) دحلان، خلاصة الكلام، ص291.

(81) دحلان، خلاصة الكلام، ص80.

(82) سنوك، صفحات من تاريخ مكة، ص268.

(83) جحاف، درر نحور الحور العين، ص721.

(84) جحاف، درر نحور الحور العين، ص721.

(85) دارة الملك عبد العزيز، مجموعة وثائق شريف مكة، (وثيقة رقم: 2/2-16).

(86) جحاف، درر نحور الحور العين، ص640.

(87) ديديه، رحلة إلى الحجاز، ص247.

(88) جحاف، درر نحور الحور العين، ص640.

(89) الجبرتي، عجائب الآثار، 461/3.

(90) ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص248.

(91) دحلان، خلاصة الكلام، ص292.

(92) الجبرتي، عجائب الآثار، 115/3.

(93) ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص246.

(94) الجبرتي، عجائب الآثار، 115/3.

(95) العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، 149/1.

(96) دارة الملك عبد العزيز، مجموعة الوثائق العثمانية، (وثيقة رقم:32090).

(97) دارة الملك عبد العزيز، مجموعة الوثائق العثمانية، (وثيقة رقم: 32091).

(98) قورشون، العثمانيون وآل سعود، ص79.

(99) جحاف، درر نحور الحور العين، ص529.

(100) لوريمر، تاريخ البلاد السعودية، ص64.

(101) دو كورانسييه، الوهابيون، ص123.

(102) دو كورانسييه، الوهابيون، ص145.

(103) دو كورانسييه، الوهابيون، ص145.

(104) العجلاني، منير، تاريخ البلاد العربية السعودية: الدولة السعودية الأولى، ج1، ط2، الرياض، مطابع دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة، 1413ه/1993م، ص11.

(105) فاسلييف، تاريخ العربية السعودية، ص142.

(106) فاسلييف، تاريخ العربية السعودية، ص142.

(107) دحلان، خلاصة الكلام، ص294.

(108) بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ص89.

(109) لوريمر، تاريخ البلاد السعودية، ص6.

(110) ابن بشر، عنوان المجد، 29/2.

(111) الجبرتي، عجائب الآثار، 247/3.

(112) ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص248- 249.

(113) ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص248- 249.

(114) الجبرتي، عجائب الآثار، 248/3- 249.

(115) الجبرتي، عجائب الآثار، 112/3.

(116) سنان، معروف، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية، بيروت، دار الساقي، د.ت، ص113.

(117) آدموف، ألكسندر، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، تر: هاشم التكريتي، ج1، ميسلون بغداد، 1989، ص136.

(118) البطريق، إبراهيم باشا في بلاد العرب، ص30- 31.

(119) دحلان، خلاصة الكلام، ص295.

(120) جارشلي، أشراف مكة، ص199.

(121) ديدييه، رحلة إلى الحجاز، ص235- 254.

(122) كمن، ديفيد، الدعوة الوهابية والمملكة العربية السعودية، ترجمة عبد الله العسكر، ط2، بيروت، جداول للنشر، 1426ه/2006م، ص75.